

الدكتور محمد رجب البيومي

اسلوب الزيات كما يراه الناقدون

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي
الاستاذ بكلية اللغة العربية بالرياض

* * *

نشات على اجلال ادب الزيات واكباره ، اذ كنت في صباي اتلهف على افتتاحيات رسالتهواترقبها بعين المشوق المتطلع ، واجد لها في نفسي روعة الشعر ، وحلاوة الغناء ، وبهجة الروض ، ثم لا يزال يصحبني هذا الشعور بعد ان تقدمت السن ، واتسعت ميادين الاطلاع ، لذلك وجدت من العسير ان انفرد بالحديث عن خصائص اسلوبه البياني ما دمت اضعه من الاكبار في موضع يطمئن الى الرضا والحب ، واذا تعذر الخلوص من الهوى لدي فلعل من الاحزم ان اتحدث عن اسلوب الزيات كما يراه اساتذة النقد من معاصريه ، فقد يكون الحكم لديهم بعيدا عن مطارح الهوى ومنازع العاطفة اذن ان الحديث عن اسلوب الزيات ضرورة ملزمة لمن يتعرض للحديث عن آرائه البلاغية لان اسلوبه هو التطبيق العملي لرايه ، والمثال الحي لما يضع من قاعدة ومن حسن الحظ ان من كتبوا عن اسلوب الزيات كثيرون نعد منهم ولا نعدهم ، وفي آرائهم الصريحة ما يهدي الى الحق من اقرب طريق .

يقول الناقد الكبير الاستاذ سيد قطب رحمه الله(١):

« والاستاذ الزيات اولى الكتاب المعاصرين بالدفاع عن البلاغة ، فهو صاحب مذهب التنسيق التعبيري ، ذلك المذهب المتفرع عن المنفلوطي صاحب مذهب الابتداع التعبيري ، الذي يجعل للتعبير وتنسيقه اهمية كبرى في الفن بل الذي يجعل على اساس العمل الفني هو هذا التنسيق التعبيري » .

ويقول الدكتور زكي المهندس ، في افتتاحية حفلة التأبين المجمعية (٢) :

« اما اسلوب الزيات في افتتاحيات الرسالة فليس منا من ينساه ، كان هذا الاسلوب يمتاز بالرشاقة والاناقة والايقاع الموسيقي المتزن مما يأخذ بألبابنا ، هذا الاسلوب الفني الرصين قد افتقده الادباء بعد وفاة المنفلوطي ، وكان عليهم ان ينتظروا عشر سنوات كاملة حتى ظهرت الرسالة ، وكتب الزيات ، فاذا اسلوب الزياتاكثر ابداعا واكثر اناقة ورصانة من اسلوب المنفلوطي » .

واذن فقد اتفق الاستاذان على ان الزيات كان امتدادا للمنفلوطي ، ولكنه امتداد مزهر اذ لقف اللاحق من الثقافة ودرس من الوان المعرفة اكثر مما درس السابق فاتضح ذلك في ادبه القوي ونبره الاخذ ، والحق ان المنفلوطي كان قائد مدرسة عملت على الخلاص من العجمة واهتدت الى صفاء الصقل ونور الديباجة وقد اشرقت على العالم العربي اشراقا اخاذا ، فأخذ النثر على يد المنفلوطي يحل محل الشعر في روعة التاثير وقوة الاحساس وصفاء الرونق ،وكان محمد المويلحي معاصرا للمنفلوطي ولكنه مال الى المحسنات بقدر لا يغفل جمال الصورة وصدق العاطفة ، وقرا الزيات المنفلوطي والمويلحي معا ! فأخذ من كل محاسنه ، وزاد عليهما ما اوحى به التيار الوافد من تنوع الثقافة وبعد النظرة وعمق النفاذ ، فكان مثله مع المنفلوطي مثل ابي حيان التوحيدي مع الجاحظ ، فاذا خلبك الثاني برونقه وتدفقه وفكاهته بهرك الاول بدقته وعمقه ونفاذه مع اشتراكهما في صفاء الديباجة وجمال الصقل ، وقد انتقد الزيات ادب المنفلوطي ، اذ قال عنه بعد ان انصفه بكثير من الثناء (٣) :

« وسر الذيوع في أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الادب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الالم ويمثل العيوب ، في اسلوب طلي ، وسياق مطرد ولفظ مختار ، اما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها امران ، ضعف الاداة وضيق الثقافة ، اما ضعف الاداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالما بلغته ولا بصيرا بادبها واما ضيق الثقافة فلانه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب ، لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والاحالة » .

ونحن نوافق الزيات على ان المنفلوطي قد يؤتى ادبه من ناحية ضيق الثقافة ، اما ان يكون ضعيف الاداة فهذا ما ينكره الواقع اذ انك تقرأ المنفلوطي فتجد من دلائل العلم باللغة والبصر بآدابها ما لا يجحد ! ولعل الزيات كان يريد

(●) من كتاب عن الزيات تحت الطبع .

من الرجل ان يكون عالما نحريرا متنطسا ، وهذا ما لا يلزم اديبا يتنفس عن خواطره بأروع الايات وارق الاساليب واما ضيق الثقافة فعيب نسبي يكاد يوصف به كل فرد بالقياس الى سواه ، وهو في المنفلوطي اوضح منه فيمن عداه!

فاذا اردنا تحديدا لخصائص اسلوب الزيات فاننا نجد الناقد الكبير الاستاذ محمود العقاد يقول عنه (٤) :

« اسلوب الزيات اتقان واستحياء وسلامة ، اتقان صيغة في غير ظهور ولا ادعاء يوشك من يتبينه ان يلمسه ليعرف موضع الجودة فيه ، كما يلمس المسوم النسيج المتين الذي وعى المتانة سرا من اسرار منواله ، وخلا من الزخرف والبريق لان اتقان تلك الصيغة كاتقان هذا النسيج في حقيقتها وليس على مرآها ، وعلى صفحة محياها دون سواها .

واستحياء يخفي مزاياه ولا يفوته شيء بان يخفيها لانها اثبتت من ان يمحيها الخفاء ، وسلامة تطوع العصي وتملك الزمام في الوعر والسهل على السواء ، فان ما تصف من الم نفساني يلهب مراق الحشا ويبده الضعف الانساني باقصى ما يطيق لكالذي تصف من الم يباشر الفكر قبل ان يباشر اللحم والدم . ويحسب من قضايا الراي كما يحسب من قضايا الفؤاد .

اتقان واستحياء في المعنى لا في اللفظ وحده وفي موضوع الكتابة لا في بنيانها وتركيبها وكفى ، وعلى السيماء وفي الطوية سواء » .

وكلام العقاد دقيق دقيق يحتاج الى ضوء يكشف خفاياه ويظهر طواياه ! فقد حكم على الفكرة والصورة والتعبير حكما حاسم الراي .

فالتعبير في اسلوب الزيات صنعة متقنة جيدة كالنسيج المتين القوي ، وهو على اتقانه يسلس سلاسة تطوع العصي وتملك الزمام في الوعر والسهل على السواء .

والصورة ذات تأثير نفسي اذ تلهب الاحشاء وتبده الضعف الانساني بأقصى ما يطيق الانسان ، وصاحبها لا يحتفل باظهار جمالها ولكن جمالها الطبيعي يظهر دون خفاء لانه اقوى من ان يستتر بحجاب .

والفكرة متقنة قوية اذ تعمل في العقل قبل ان تباشر الدم واللحم وتحسب من قضايا الراي كما تحسب من قضايا الفؤاد .

هذا تفسير قول العقاد كما نراه ، وان احتمل من الاشارات ما يفهمها القارىء بايحائه دون ان يجتليه من منطوقه ، فاذا تركناه الى الدكتور بشر فارس فاننا نجده يقول (٥) :

« في فصول هذا الكتاب ــ يريد الجزء الاول من وحي الرسالة ــ تصيب المنحى الحسن ، والتنسيق المطرد ثم اللفظ المتحيز ، والسبك المحكم الى جانب التبصر واسلوب الاستاذ الزيات الترسل في بسط العبارة والترفق في تدوين الفكرة ويهدد هذا الاسلوب في الغالب سرد اللفظ وتكلف الاداء ، وقد نجا اسلوب هذا الكاتب من هذين الخطرين بفضل سليقة صاحبه السليمة ، وترسمه خطى البلغاء من كتاب العرب الجاعلين للديباجة المكان الاول ، ومما ينشأ عن هذا الاسلوب الاطناب المقبول ، وان قال الاستاذ في فاتحة كتابه ان الايجاز صفته ، الا اذا عنى بالاطناب ساقط الكلام ، وفضول القول بتطويل وحشو لغير فائدة » .

وواضح ان الدكتور بشرا قد حكم لاسلوب الزيات بحسن المنحى وتنسيق الاطراد وتخير اللفظ ، واحكام السبك ، وهي صفات لا تمس الفكرة ثم اكد ذلك حين قال : واسلوب الزيات الترسل في بسط العبارة ، والترفق في تدوين الفكرة . وفي رايي ان الدكتور قد بالغ في حكمه لان نصيب الفكرة عند الزيات مكين متحقق وقد رزق من حلاوة التعبير ما خدع بعض المتسرعين عن قوة المعنى مع ان اسلوبه يؤثر في العقل تأثيره في الوجدان ، ولعل الاستاذ مصطفى الصباحي كان اقرب الى الصواب من الدكتور بشر فارس حين قال (٦) :

« وللاستاذ الزيات اسلوب يتميز به على كثير من كتاب العصر ، وسياقة لن تجدها لكاتب من أهل هذا العصر وتفتقدها من لدن ازدهرت اللغة وعمت آدابها في العصر العباسي حتى الان فلا تجد الا نفحات مبعثرة في تاريخ ادبها لا صلة بينها وبين بعضها ، فذلك كاتب وقعت له عبارة جزلة ، وهذا خطيب اتفق له معنى فحل ، وغير هذين جمعت له بعض الوان من فنون العبارة او بلاغة المعاني ولكن قلما وقعت على كاتب وفق في الغايتين فامتلك ناحية العبارة وبرز في خلق المعاني وتلك هي الغاية التي عندها آداب الكتاب وتقف دونها ملكات المبرزين من أرباب الاقلام » .

فهذا كلام صادق ينبىء عن قيمة المعنى في اسلوب الزيات ، وكيلا نطيل التحليل في غير مطال فاننا نقول ان الناقدين يجمعون على دسامة اسلوب الزيات بالقياس الى اسلوب أستاذه المنفلوطي ! واشهد ما اتى المنفلوطي ابدا من ناحية اللفظ فله نصاعته وسلاسته ورنينه ، ولكن الزيات قد رجحه من ناحية المعنى فشاركه جماله وزاد عليه بقوة معناه وسعة ثقافته مما يمنع ان نجعله رجل تنميق وسبك ورصف وصقال .

على ان الدكتور اسماعيل احمد ادهم قد كان من أصدق الذين تحدثوا عن ادب الزيات حيث لخص خصائصه الاسلوبية في ايجاز محكم يهبط به ان نختصره بالتلخيص ، فلنذكره بنصه كما جاء .

يقول الدكتور اسماعيل احمد ادهم (٧) :

---

(١) كتب وشخصيات ص ٢٧٣ ط بيروت . (٢) مجلة مجمع اللغة العربية ج٢٤ ص٣١١ . (٣) وحي الرسالة جـ١ ص.٣٩ الطبعة الثامنة . (٤) وحي الرسالة ص ٤٩١ الطبعة الثامنة . (٥) وحي الرسالة ج ١ الطبعة الثامنة ص ٤٨٩ . (٦) وحي الرسالة ج ١ الطبعة الثامنة ص٥٠١

« والزيات اديب فنان يحسن ابراز الحياة التي في الاشياء بالفكرة التي تنطوي عليها وبالعاطفة التي تحملها في طياتها ، وبالخيال الذي تحتوي عليه ، ومن هنا تجد التنوع في جمال كتابة الزيات التي تتوازن فيهاالفكرة معالعاطفةمع الخيال والتي تتناسب كلها مع صناعة فنية بارعة تفرغ كل هذه الاشياء في صورة ادبية ، وقالب فني محكم ، والحق ان **الزيات هو الاديب العربي الوحيد** بين كتاب العربية اليوم ، الذي تخمرت في ذهنه مدلولات الالفاظ فعرف دقائقها وادرك الاسرار العربية المحيطة بها ، ومن هنا تراه يلبس فكرته واحساسه وخياله اللفظية الخاصة بها التي تعطي لونها من لغة الكلام.

والزيات قد خلف في مدرسة البيان العربي المرحوم الرافعي وهما على ما بينهما من اختلاف في الطبع ، وتباين في المزاج وتفاوت في الثقافة الا ان قوة الفن وحركة الذهن تجمعهما ، وان كان ذهن الزيات يختلف عن ذهن صاحبه من جهة الصفاءوعدم انقطاع الصلة بينه وبين عقل الناس، فمعانيه مفهومهوهي ذات اصل دقيق من الفكر ، وفكر الزيات ملتقى العقلين العربي والغربي ، العربي في جلالته وروعته والغربي في عظمته وترتيبه ودقته ».

يخيل الي ان الدكتور ادهم قد وضع الزيات موضعه الصحيح دون محاباة او مبالغة فالزيات اديب فنان يحسن ابراز الحياة في الاشياء في الفكرة والعاطفة والخيال مع صناعة فنية بارعة تفرغ كل هذه الاشياء في صورة ادبية وقالب محكم ، والزيات يعرف سر اللفظ فيختاره في مكانه حاملا معناه وموسيقاه وايحاءه ، والزيات خلف الرافعي مع فرق ما بين الرجلين ، فمعاني الزيات مفهومة متصلة بخواطر الناس وملتقى الفكرين العربي والغربي، اما الرافعي **فيجتمع مع الزيات في قوة الفن وحركة الذهن ويخالفه في صفاء بعض معانيه وانقطاع تفكيره** عن الكثيرين حين يعمق ويتداخل ، هكذا حكم ادهم ، ويخيل الي ان **الرافعي قد** ظلم بعض الشيء فمعانيه لا تنقطع عن كل الناس بل عن عامة الناس لانه يلجأ في كل معنى الى تفلسف ينتزعه من تصوره الخاص دون ان يصطاده من المؤلفات ، وعاطفة **الرافعي** في الوجدانيات اقوى من عاطفة الزيات لان عكوفه على نفسه واخفاقه في حبه ، وشعوره بانعزاله قد ولد عنده من الصور ، واوجد من العواطف ماجعل نفسه تجيش وتعلو مزبدة هائجة حتى اذا حاول ان يصور هياجها المتلاطم استعان بفكره في تعليل ذهني يصدق كثيرا ، ويخفق قليلا حين يكون استطراد منطق ، وايغال توهم وكان الزيات رحمه الله يكبر الرافعي ويجعله امام البيان في عصره مع مآخذ سجلها عليه في حيدة نزيهة وانصاف حبيب ، وربما تعرضنا لها بالتحليل فيما بعد ، وقد قال صادقا عنه (٨):

« أسلوب الرافعي يمتاز بالسلامة والسلاسة والايجاز العميق ، وهذه المزايا نتائج حتمية لاكتمال عدته ، وغزارة مادته ، وصفاء ذوقه ، وذكاء فهمه ، واشد ما يروعك منه قوة الفن وحركة الذهن فاما قوة الفن فهي الاستاذية التي تخلق المادة او تصنع القالب وتضع اللفظ وتحدد الرسوم وتوضح الفروق ، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف ، وتخيل اليك ان الصناعة طبع ، وان المعاناة سليقة ، واما حركة الذهن فهي حركة الغواص الدائب لا يقف عند السطح ولا يستقر عند القاع ، وانما يضرب بيديه القويتين في أغوار البحر وقد انتقل عن شواغل الناس بالعين والاذن ، على انها حركة الروية لا حركة العبقرية فمعانيه تقطر ولا تفيض ولكنها على طول الرشح واعتصار القريحة تصبح سيلا طامي الجوانب صافي الموارد»

وقد يكون **من الاستطراد غير البعيد** ، ان نذكر ان مدرسة الجمال التعبيري في ارقى نماذجه قد سعدت **بالمنفلوطي والرافعي والزيات** ، وهؤلاء جميعا قد شملهم هذا الحديث الا ان الحق الادبي يقتضينا ان نذكر رابعالهم هو الاستاذ عبد العزيز البشري فقد شاركهم قوة الاسر ونصاعة الديباجة وامتازبروح الفكاهةوخفة الصورة وطلاقة الحركة ، واذكر اني كتبت فصلا عن ادب الرافعي موازنا بزملائه قلت فيه (٩):

« كان المنفلوطي والرافعي والبشري والزيات من مدرسة واحدة تتجه وجهة البيان المشرق ، وقد مضى كل واحد من تلاميذ هذه المدرسة الى حيث يؤهله استعداده ومنحاه ، فالمنفلوطي يؤثر السهولة والانسياب لذلك تجد بيانه عذبا سهلا ينحدر انحدار الماء في مجراه دون كدرة او غثاء ، اما البشري فقد برع في التصوير الظاهر لمعالم الصورة المرئية ، والباطن لخوافي النفس المستكنة مع فكاهة ظاهرة وخفة روح لا يضائلان من رصانة الاسلوب وقوة أسره ، وقد اولع الزيات بالتنسيق اللفظي والتصوير الخيالي دون ان يغفل جانب المعنى فجاء بيانه آية من الايات في حلاوة نسقه وصفاء مورده وجودة تقسيمه وصحة منطقه ، فاذا تركنا هؤلاء الى الرافعي فاننا نجده أعمقهم فكرا وابعدهم غوصا وانآهم منالا حيث تتوالى معانيه في قوة ودقة ، وتترادف أخيلته في براعة وقدرة ».

ولعلنا بعد هذا التطواف السريع قد عرفنا قيمة المعنى لدى الزيات لندفع به هراء قوم يظنون صاحب القلم البليغ راصف الفاظ ، وهو قصور لديهم عز عندهم ان يعترفوا به **فذهبوا يطاولون صاحب الاداة المكينة بالمراء والسفه والتجني فكشفوا عن اسفافهم بما يأفكون** ، وفي كلمة الاستاذ الدكتور مهدي علام المجمعية ما يدل على مذهب الزيات الادبي اذ آثر الدكتور مهدي ان يقتبس من كتاب دفاع عن البلاغة ما يرسم نهج صاحبه الفني ، وقد حدد الزيات قضية اللفظ والمعنى في دفاعه تحديدا كاشفا سنتعرض له بعد حين حيث انتهى المؤلف البليغ الى « ان الكلام كائن حي ، روحه المعنى

(٧) وحي الرسالة جـ١ ص ٥٠٠ . (٨) وحي الرسالة جـ١ص٣٩ الطبعة الثامنة. (٩) مجلة المنهل مجلد سنة ١٣٩٣ هـ (الجزءالتاسع – رمضان). (١٠) دفاع عن البلاغة ص ٧٤ الطبعة الثانية . (١١) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٤ ص ٣٣١.

ابكيتني في يوم ميلادي

يا ضاحكا من عمري الصادي ... ابكيتني في يوم ميلادي
اتمر ذكرى لست تذكرها ... وتريدني امضي بانشادي
يا طيف حب كان منبلجا ... اذ كنت فيه الرائح الغادي
اي اعتذار منك اقبله ... من بعد ما اخلفت ميعادي

كتمت اشواقي ، فما رخصت ... وشمخت ، لم اعثر باحقاد
صفدت في سجن الهوى حلمي ... فنعمت في سجني واصفادي
وحدت عاطفتي ، فما كثرت ... في الحب ورادي وروادي
ان ظن بي عجز ، فلا هنئت ... يا طيف حبي ، عين حسادي

ذنبي ، ولست اليوم اجهله ... اني اطلت عليك تردادي
ما كان لي مجد اسامره ... فصنعت منك ندي امجادي
احببتك الحب الذي خشعت ... لسماحه ترنيمة الحادي
ناجيت نيسانا ، فانكرني ... وانا الربيع العاطر النادي
وانا غناء الطائر الشادي ... وانا سناء الكوكب الهادي
رقرقت في شفتيك اغنيتي ... وخلعت فوق يديك ابرادي

ان كنت اعتذر ، كيف يسمح لي ... بالعذر قلب الواله الصادي
لو كنت قد هناته لشدا ... ولما شكا ، في يوم ميلادي

فوزي عطوي

وجسمه اللفظ ، فاذا طلب بينهما اصبح الروح نفسا لا يتمثل ، والجسم جمادا لا يحس » (١٠) .

غير ان استاذنا الدكتور محمد مهدي علام قد وقف عند أمر لحظه دون ان يهتدي الى تبريره فقال في رفق رقيق (١١) :

« ذلك ان هذا العبقري الحفي باللغة ، الذي يبلغ الذروة في اسلوبه ، ويستوي معتدلا في تصرفاته ، يتطرف في اختيار الفاظه في اتجاهين متضادين ، فيبلغ به التأنق مبلغ ارفع الاساليب في انتقاء اللفظ المتخصص للمعنى الذي يريده ، ولو كان غريبا على قراء عصره ، حتى انه كان يضطر احيانا لشرحه في حواشي الصفحات ثم هو في الوقت نفسه ، تتسع به سماحته فيستعمل عددا وفيرا من الالفاظ العامية والدخيلة التي تجري على الالسنة في الحديث العادي ، واحيانا يفصلها بين قوسين واحيانا اخرى يخلي بينها وبين جواهر الفاظه فهو يتكلم عن الزوجة الفارك ، وجواز القلوب ، والكباحة (يقصد الفرملة) واحلاس القهوة ، والى جانب ذلك نجده يستخدم الفاظ المكرفون ، والتلسكوب ، والكابين ، والكازينو ، والكشك والكورنيش ثم يقول استاذنا الدكتور مهدي علام تعقيبا على ذلك : « وليس لدي ما افسر به هذه الظاهرة الا ما كتبه الفقيد ، ونادى به في المجمع من تقريب العامية من العربية »

والحق ان لكل لفظ ايحاءه ، والزيات مهندس دقيق ، وله حس مرهف يجد به اللفظ العامي في مناسبة ما اولى من الفصيح ، اذ يكون له من الانسجام مع السياق ما يعد به اللفظ الاصيل كالغريب ! وقد كان الاستاذ البشري مع رصانته البيانية ممن يذهبون هذا المذهب على اتساع ، فاذا تشدد الرافعي فقد وقف الزيات في الوسط .

هذا مجمل القول في اسلوب الزيات أما تفصيله فله مجاله الفسيح .

كلية اللغة العربية ـ الرياض ... محمد رجب البيومي

يبرود

مسقط راس الشاعر

شطت الدار ، فيا قلب الاما
ترسل الشكوى حزينا مستهاما
امن الحكمة ان تذوي هياما
وترد النور في عيني ظلاما
وتساقيني ندى الفجر ضراما
آن ان تصنع للشوق لجاما
وتحيل النار بردا وسلاما

تذكر الاهل فتبكيهم دماء
وتناجيهم صباحا ومساء
يا اهيل الود عشنا غرباء
وسنقضي في البراري شهداء
فاذكرونا تنعشوا فينا الرجاء
ان بين الحر والحر ذماما
فلماذا لا تردون السلاما

وطني الاصغر يا بنت العروبه
قرية في مطلع الشمس لعوبه
من شذاها غرف الفجر طيوبه
كلما ابدى لها الدهر نيوبه
قابلته بالاهازيج الطروبه
فاستحالت ظلمة الوجه ابتساما
وغدت تكشيرة الناب سلاما

يا ربى يبرود يا بنت الخلود
بسمة انت على ثغر الوجود
نغمة نشوى على اوتار عودي
كل ما في الكون من حسن وجود
هو شيء من ترابات جدودي
يا عبير الورد يا نفح الخزامى
بلغا فردوس احلامي السلاما

بلغا « الوادي » تحياتي النضيره
واحملا « للنهر » اشواقي الكثيره
واذكراني لحمامات « الجزيره »
طال هجراني واياامي قصيره
ودجا ليلي وعيني لا بصيره
فمتى تقشع يا فجر الظلاما
ومتى تحمل للعاني سلاما

واحنيني لحماقات الطفوله
لفتاة كندى الليل خجوله
علمتني في الهوى شعر البطوله
لم تخف في عذولا او عذوله
لم تخن عهدي ولم ينقض اصوله
يا فتاتي لن اسميك احتشاما
فاقبلي مني على البعد السلاما

ايها الخافق في جنبي ذعرا
قر عينا ، ان بعد العسر يسرا
قد قضينا العمر تشريدا وقهرا
وزرعنا السعي ريحانا وزهرا
فنما شوكا وللمناه جمرا
ان في حاشية الافق غماما
ربما سح رجاء وسلاما

يا صبايا الحي هل تذكرن طفلا
لزم العش زمانا ثم اجلى
انا ذاك الطفل لكن صرت كهلا
ضيعتني غربتي اصلا وفصلا
لم اصب مجدا ولا اسعدت اهلا
فترفقن بدمعاتي اليتامى
وسلاما جنة الدنيا ، سلاما

بوانس ايرس — زكي قنصل



وديع فلسطين

حديث مستطرد عن مصطفى الشهابي

بقلم وديع فلسطين

• • •

كنت في اتعس ايام عمري ، افكر في الهجرة الآبدة ولو الى جهنميات سقر حين اتاني نعي الامير مصطفى الشهابي في ١٣ من مايو ١٩٦٨ فأخرس لساني ، وحجر الدمعفي مآقي وشل القلم في يدي ، وانضافحزن جديد ممض الى احزان قديمة متباهظة ، اشعرتني في عتوها بيتم جديد . وقد عرفت اليتم لاول مرة حين مات ابي وانا في السابعة من عمري ، ثم تمدد شعور اليتم حين فقدت اساتذتي ورعاتي الدكتور فارس نمر باشا ، وخليل مطران بك ، ونقولاالحداد والياس انطون الياس ، وعلي الغاياتي ، والدكتور يوسف نحاس بك والامير الشهابي العظيم .

ولئن كنت وجمت وجوم بلداء الاحساس ساعة وفاة الامير الشهابي ، فرجائي في هذه الكلم المسوقة استطرادا ان اجلو اطرافا من حياة هذا الرجل المتكامل السجايا ، علما وادبا وخلقا وجهادا وريادة واستاذية ، معنيا في المقام الاول بالجانب الخلقي الذي كان اشد ما بهرني في الامير العالم ، فانعقدت بيننا مودة صافية منذ عرفته لاول يوم في عام ١٩٤٨ او نحوه ، والى ان ضربت بيننا المنون بعد ذلك بعشرين عاما . أما سيرة حياته ، فلست براويها ، لان الامير الشابي قد دونها بقلمه واودعها مجامع اللغة العربية — وعندي نسخة منها — كما ان صديقنا الوفي العلامة الكبير الدكتور عدنان الخطيب قد سجل هذه السيرة المعطرة بأسباب الالهام في كتاب أصدره عام ١٩٦٨ كان منه لفتة وفاء لهذا العالم الاديب الفرد.

كنت في عام ١٩٤٨ احرر جريدة « المقطم » خلفا لاستاذي الكبير خليل ثابت باشا ، وكانمن جملة مسؤولياتي اليومية كتابة مقالات الصدر ، وفيها تعليقات ضافية على ما هو جار في الدنيا من أحداث . واذ كنت عاكفا على عملي في الطابق الثاني من دار الجريدة ، رن الهاتف ، وكان المتحدث صاحب الجريدة الدكتور فارس نمر باشا ، وكان مكتبه يلي مكتبي في الطابق الاول . فاعتذر لي بان صحته اليوم (وكان في التسعين من عمره) لا تسمح له بصعود الدرج الي كما كان يفعل في الاسابيع والاشهر الفائتة بدعوى ان وقتي اثمن من وقته ! ورجاني ان اهبط اليه لمقابلة ضيف . ولما هرعت الى غرفة نمر باشا ، قدمني الى زميله الامير مصطفى الشهابي عضو مجمع اللغة العربية قائلا ان الامير قرا فصولك اليومية في الجريدة منذ وصوله الى القاهرة لحضور دورة المجمع ، وانه رغب في مقابلتك لتهنئتك عليها . ولاحظت في عيني الامير الشهابي امارات الدهشة ، التي سرعان ما فسرها قائلا : لقد حسبتك شيخا في الثمانين ، واذا انت شاب في الخامسة والعشرين. فقلتله: انني مدين بالفضل لاساتذتي الدكتور نمر وثابت باشا والدكتور فؤاد صروف . فقال يسعدني كثيرا ان القاك ، ودعني أهنئك على كتاباتك التي لولا تذييلها باسمك المهمورة به لحسبتها من قلم خليل ثابت باشا.

وشكرت له هذه المجاملة وذلك التشجيع ، وعدت الى عملي والدهشة تعقد لساني . فمن انا حتى يهتم بي هذا العالم الكبير الذي اعرف انه عضو في مجمعين ، وكان وزيرا غير مرة ، وله معجم في النبات يحمل اسمه ؟ وهل تراني خيبت امله او انه كان في تشجيعه صادقا غير مجامل ولكنني تذكرت ما أثر عن اخلاق العلماء الافذاذ من تواضع وحدب على الناشئة ، وقلت : لا ريب في ان الامير الشهابي عالم أصيل.

وبعد ذلك بعامين ، قرات في الصحف ان الامير الشهابي اختير سفيرا لسورية في مصر، فكتبتفي «المقطم» كلمة رحبت فيها به ، حتى اذا وصل الى مصر بعد ذلك لم اكن في عداد مستقبليه او المرحبين به ، اعتقادا مني بانه في مهامه الجديدة لا يتعامل الا مع انداده الوزراء والسفراء، وان اللقاء العارض الذي تم بيننا منذ عامين لا بد ان يكون قد نسي او تنوسي . وكان من دأبي وديدني — وما زلت على هذا مقيما الى يوم الناس هذا — ان ادير ظهري لكل ذي منصب ، فلا اتعامل حتى مع اصدقائي منهم ما داموا على الارائك والدسوت . فاكتفيت بمتابعة نشاط السفير السوري الجديد باعتبار ذلك جزءا من اهتماماتي الصحفية اليومية المعتادة .

وذات صباح ، دق الهاتف وكان المتكلم الامير مصطفى الشهابي الذي عاتبني لانني لم استفسر عنه . فخجلت من

نفسي ، ولكنني قلت له : اعرف انك مشغول بأمهات المسائل والاعباء ، ولم اشأ ان اكون كلا عليك . ثم انني حسبتك نسيتني فلم ارد ان اذكرك بشخصي ، وعندك من التبعات ما ينسيك حتى امورك الخاصة . فضحك ثم قال: اسمع يا صاحبي ، انا عالم واديباولا ،اما السفارةوالوزارة فهي مجرد وظيفة نحاول عن طريقها خدمة بلادنا وامتنا . ولكن متعتي الاولى والاخيرة هي اجواء العلم والادب . وما دمت انا في القاهرة ، فانس انني سفير ، وعاملني كزميل وصديق رابطتنا الاولى والوثقى هي حب العلم والادب .

واحسست وقع التأنيب على ضميري ، لانني اهرب من الشهابي بوصفه سفيرا ، بينما هو يهرب الي بوصف كلينا من محبي الادب والعلم . وهذه والله اخلاق العلماء الاصلاء الذين يرون في العلم والادب أعظم قيمة واخلدها، اما الوظائف والالقاب فهي عارضة مهما تفاقمت وتعاظمت واستطال امدها . وقلت للامير الشهابي : اذن نرجىء اللقاء الى ان تنتهي من مراسم تقديم اوراق اعتمادك وما يسبق ذلك من مقابلات رسمية وزيارات بروتوكولية . فقال : بل نلتقي غدا ، ومعنا جمع من الاصدقاء : اميل زيدان بك (صاحب دار الهلال) وسامي السراج الاديب المجاهد المعروف وعزيز ميرزا بك رئيس تحرير الاهرام وسامي الجسري محرر المقتطف وعادل الغضبان الاديب الشاعر الرقيق والدكتور فؤاد صروف الذي انشغل عنا بعمل طارىء وحبيب جاماتي صاحب تاريخ ما اهمله التاريخ .

وهكذا تحولت السفارة السورية في عهد الامير مصطفى الشهابي الى فرع لمجمع اللغة العربية ، ولا سيما بعد ان انضم الى هيئتها حبيب الكل الدكتور زكي المحاسني كمستشار ثقافي لسورية في مصر . وكنت ازور الامير مصطفى بلا موعد وفي اي وقت ، فان كان على موعد مع زائر ، عرجت على الدكتور المحاسني . وفي هذه الدار ، التقيت بالدكتور منصور فهمي باشا والدكتور زكي نجيب محمود ومحمد عبد الغني حسن وحسن كامل الصيرفي والدكتور ابرهيم بيومي مدكور والدكتور احمد شوكت الشطي وساطع الحصري وحبيب جاماتي وبشر فارس وطاهر الطناحي ، وما شئت من اسماء الادباء والعلماء الذين راوا في سفارة الامير الشهابي سفارة ادب وعلم ولغة وتراث ومصطلحات ، لا سفارة احتراف سياسي .

ولا بأس ان اذكر انني شننت حملة شديدة على اديب الشيشكلي الذي كان الامير الشهابي يمثله في مصر ، وتوقعت ان تنشأ بيني وبين الامير جفوة بسبب هذه الحملة . ولكنه لا بعث الي برد عنيف على كلامي ، ولا قاطعني ، بل انتهز اول فرصة اجتمعنا فيها ليقول لي : طبعا قرات فصولك ، وقراتها بروح العالم لا باحتراف السياسي . فدعني اهنئك عليها لانني لم اجد في منطقك ماخذا اعيبه عليك ، ولا وجدت في القيم والمثليات التي تدين بها ما اخالفك فيه . ولكنني احب ان تعرف ان مهمتي الاولى هي انشاء علاقات بين سورية ومصر اعمق من ان تتأثر بالاشخاص ، فنحن قوميون ، ولساننا عربي ، ووجداننا واحد ، وتراثنا مشترك ، ومصالحنا مترابطة ، وماضينا ومستقبلنا وحاضرنا واحد . فانظر الى امةالعرب هذه النظرة العميقة ، ودعك من الشيشكلي ومن سواه ، بل دعك مني انا شخصيا لاننا كلنا ماضون وتبقى امة العرب من بعدنا .

وعجبت من هذا المسلك من جانب الامير الشهابي ، ولكن عجبي زال حين ايقنت ان هذا الرجل صاحب رسالة وليس مجرد شاغل وظيفة ، وانه يعمل بوحي من ايمانه وضميره وخلقه ، ولا يتصرف بناء على تعليمات مقررة صدرت اليه لينفذها تنفيذا حرفيا اعمى .

وقد استيقنت من هذه الروح القومية المتأججة في صدر الامير حين اخبرني انه يعد محاضرات عن القومية العربية لالقائها في معهد الدراسات والبحوث العربية بدعوة من عميده ساطع الحصري ثم رجاني ان انقل له في كراسة ما كتبه جورج انطونيوس (زوج الاخت العزيزة كيتي انطونيوس كريمة فارس باشا نمر ، اطال الله عمرها والبسها اثواب العافية) عن ناصيف اليازجي وبطرس البستاني ونجيب عازوري وغيرهم من النصاري الذين كان لهم اسهام في ايقاظ العرب . وكنت اعرف ان كتاب « يقظة العرب »لانطونيوس ترجم الى العربية بقلم الركابي قبل ان تصدر له ترجمة ثانية بقلم الدكتورين احسان عباس وناصر الدين الاسد ، ولكن قدر لهاتين الترجمتين الا تعرضا في مكتبات القاهرة . فنقلت للامير الشهابي المادة التي اعوزته لان لغته الانكليزية لم تكن تساعفه كما تساعفه الافرنسية والتركية . وعرضت لي اثناء الترجمة واقعة جرت في عام ١٨٨٠ حين قام الثوار العرب بطبع لافتات ، كانت احداها تحمل صور سيف مسلول كتب تحته بيت من الشعر نقله انطونيوس من العربية الى الانكليزية دون ان يشير الى صاحبه . وحاولت جهدي البحث عن نص هذا البيت فأعيتني الحيلة ، وعندئذ اقتصرت على ترجمة معناه قائلا ان مؤدى البيت هو « بالسيف تدرك المرامي البعيدة ، فتوسلوا به ان اردتم النجاح » . ولما قرأ الامير الشهابي هذه العبارة ارتجل هذا المعنى شعرا قائلا :

عليك بحد السيف ان رمت مطلبا ... فبالسيف لا الاقوال نيل المطالب

على انني في تاريخ تال اهتديت الى النص الاصلي للبيت وهو :

لتطلبن بحد السيف مآربنا ... فلن يخيب لنا في جنبه ارب

ومع ان جهدي في ترجمة هذه الفقرات كان جهدا ثانويا ، فقد حرص الامير مصطفى الشهابي بخلق العالم المكين على الاشادة بي في محاضراته حين صدرت في كتاب مستقل عن معهد الدراسات التابع للجامعة العربية . ولم

يكتف بذلك ، بل اشار علي بترجمة كتاب انطونيوس اعجابا منه باسلوبي في نقل بضع صفحات منه ، فشكرت له تشجيعه ، وتركت هذه المهمة للظروف .

وبانتهاء العمل الرسمي للامير الشهابي محالا الى التقاعد ، عاد الى سورية ، ولكن رسائله تواصلت وتواترت، وزاد عليها ما استهداني اياه من كتب مجمع دمشق ومجلته وما كان يرد اليه من كتب مكررة او باللغة الانكليزية . وكنت من ناحيتي اعرف اهتمامه الاول بعلوم الزراعة والاحياء وبالمصطلحات في كل فن ، فكنت اوافيه بكل ما يقع تحت يدي من كتب او معاجم او قوائم اصطلاحية يعنيه امرها . فاذا حل الشتاء في كل عام ، جاء الامير الى القاهرة ليشهد مؤتمر المجمع ، ثم ليتفرغ لمهام علمية مختلفة . وفي شتاءات القاهرة طبع الطبعة الثانية لمعجمه الزراعي الكبير ، وطبع كتابا ذا جزءين عن الاستعمار ، وطبع كتاب « القومية العربية » مرتين ، وطبع كتاب « المصطلحات العلمية واللغة العربية » وشارك في جميع مناقشات مجمع اللغة العربية ، ولاسيما عند التصدي للمصطلحات الجديدة في العلوم وشؤون الحضارة . وما زالت عندي مضابط المجمع ، وعليها ملاحظات بخط يد الامير الشهابي تنطق بسعة آفاقه وولعه المفرط بالمصطلحات واصول اشتقاقها واستعمالاتها في القديم والحديث . وهو ولع جعله يبحث عن جديد المصطلحات حتى في الرسائل الشخصية التي يرتجلها اصحابها . فقد فوجئت وانا اطالع البحث الرئيسي المدرج في عدد اكتوبر ١٩٦٢ من مجلة المجمع بعنوان « الفاظ الحياة العامة ومعجم الحضارة لمؤلفه محمود تيمور » بان الامير الشهابي جعل لبحثه هامشا نقل فيه بالتزكية والاعجاب ثلاث الفاظ وردت ارتجالا في رسالة خاصة بعثت بها اليه ، وهي « المهاتفة » بمعنى المحادثة التليفونية ، و « مقال الصدر » للمقال الافتتاحي ، و « المحرزات » بمعنى المنجزات العقلية او الحضارية . ولما عاتبت الامير الشهابي لانه ينقل كلامي الدارج الوارد في رسالة مرتجلة الى اعرق مجلة مجمعية في العالم العربي ، قال لي ان واجبي الاول كعالم ان ارصد كل ما يخدم حياتنا العلمية وان اسجله منسوبا الى مصدره . وعلى هذا العرف جرى الامير ، فاشار الي في كثير من مقالاته ، وعقد علي فصولا خاصة غير مرة ، بل اكتشفت بعد وفاته انه ذكرني في الطبعة الثانية من كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » ولم اكن قرات الا طبعته الاولى .

ولئن كان في كثير مما استطرد اليه القلم حديث شخصي يلبسني تهمة الانانية والذاتية ، فلم يكن لي من هذا ملاذ ، وانما اوردته برهانا على خلق علمي اصيل تمكن من الامير الشهابي ، ولعله راى في بعض جهدي ما يدعو الى التشجيع ، فلم يبخل علي به ، بل لعله كان في تشجيعه شديد الغلو والشرف .

وعند انتخاب الامير الشهابي رئيسا للمجمع الدمشقي خلفا للعلامة خليل مردم بك ، فوجئت بكتاب رسمي من المجمع موقع عليه من امين سره الامير جعفر الحسني مؤداه ان المجمع قرر اهدائي مجلته وجميع مطبوعاته لمزايا توشمها في . وبادرت بالكتابة الى الامير مصطفى الشهابي شاكرا ومعاتبا . فقلت له اخشى ما اخشاه ان يقال عنك انك تبدد اموال المجمع وتهدي مطبوعاته الى من لا يستحقون . فكان جوابه : اما الاستحقاق فاترك لنا نحن تقديره . ثم اعرف انني اجعل من خزانة كتبك فرعا من خزانتي الخاصة في دمشق ومتى جئتكم في الشتاء ، واعوزتني كتب مجمعية ، كنت لي مسعفا بها . وما اكثر ما كان يستعير كتبي في رحلة الشتاء ، فان ردها بعد الفراغ منها ، كانت في صفحاتها ملاحظات بخط يده تشهد له بدقة المطالعة وعمق الفهم والاستيعاب والتبصر .

ولما صدرت الطبعة الثانية من معجمه الزراعي مطبوعة في القاهرة في مطبعة مصر باشراف اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية ، زارني الشهابي العظيم في منزلي واهداني النسخة الرابعة من هذا المعجم قائلا : النسخة الاولى كانت من نصيب عبد الخالق حسونة باشا الامين العام للجامعة ، والنسخة الثانية للدكتور طه حسين رئيس اللجنة الثقافية ، والنسخة الثالثة لعزيز اباظة باشا رئيس مجلس ادارة مطبعة مصر . او النسخة الرابعة فاهديكها عربون صداقة ايا كانت صفتك . ولما اعترضت على الامير الشهابي لان هناك من هو احق مني بهذه الهدية ، خرج من حلمه المعهود قائلا : لا تنس انني عالم واديب ، وان عندي موازيني الخاصة التي أزن بها الناس . فلا تتدخل في شؤوني ، ودعني اتصرف في كتبي وفق هواي .

ولكنني عدت فقلت له : اذن ، فاسمح لي ان استهديك نسخة من المعجم لصديقنا سلامه موسى ، فهو عالم واديب وصحفي ، ولمثله ينبغي ان يهدى كتابك . فناولني نسخة من معجمه لسلامه موسى الذي عقد عليه فصلا موجزا ولكنه شديد التبصر ، ونشره في « الاخبار » القاهرية .

ولما صدر كتابا « القومية العربية » و « الاستعمار » كنت قد اقسمت يمينا مغلظة بالا اكتب حرفا واحدا في السياسة ، فقد طلقتها طلاقا نهائيا كفرانا بها وتبرؤا من جرائر وعقابيل اصابتني بسببها دون ذنب . فقلت للامير الشابي انني اقبل كتابيك على العين والراس ، ولكن اعذرني ان رايتني اودعهما خزانة الكتب دون قراءة ودون تقريظ . ولم يعتبر كلامي هذا انتقاصا لجهده ، ولا استخفافا بعمله ، بل عده حقا مشروعا لكل اديب وباحث ومفكر في ان يقرأ ما يشاء ، ويكتب في ما يشاء من موضوعات دون الزام ، بل دون احراج . وما زالت يميني المغلظة قائمة الى يوم الناس هذا ، فاجفو المطالعات السياسية ، واجتنب كل حديث او بحث فيها .

وحتى عندما اصدر صديقنا الراحل الدكتور عبد الرحمن البزاز ـ رحمات الله على سيرته العظيمة ـ كتابه عن « القومية العربية » ورجاني بشخصه ان اشارك في ندوة اقيمت للحديث عن الكتاب ، فقد اخترت زاوية « اللغة العربية » دون سواها من الزوايا لاتحدث عن جامعة العرب الكبرى التي توحد ولا تفرق ، وتنشر العلم لا الجهل ، وتبيت الخير لا الغدر .

وقد عرف الناس الامير مصطفى الشهابي عالما نباتيا وفقيها في المصطلحات ، واديبا واسع الدراية باللغة العربية وآدابها وفلسفتها ، ولكنهم لم يعرفوه شاعرا . واذا كنت قد اسلفت في هذا الحديث بيتا ارتجله ليؤدي به معنى منثورا ، فهناك قصائد يطالعها القارىء في محاضراته التي القاها في مجمع اللغة العربية بدمشق ،وفي كتابه « الشذرات » نورد منها هنا قوله وهو يودع القاهرة :

اواه يا نسمات النيل ساجية	كم ضمك الصدر شهاقا وزفارا
وكم تعطرت بالريحان وامتزجت	رياك بالروض افنانا وازهارا
ما ان نشقتك حتى خلت منتعشا	ماء الحياة جرى في الجسم انهارا

وقال في مصر ايضا :

يا ساكني مصر لا تنسوا مودتنا	ان الوفاء لكم اضحى لنا دينا
انتم بنو عمنا فاجفوا بساحكم	حمراء بالشر تفريكم وتفرينا
الخلق والخلق والعادات تجمعنا	والدين واللغة الفصحى وماضينا

وقد شكوت الى الامير الشهابي مرة من ان الراقصات « الموقرات » يمنحن امتيازات ضرائبية بدعوى انهن يخدمن الفن الرفيع ، بينما الادباء والعلماء والمفكرون لا يمنحون امثال هذه الاعفاءات لانهم عاجزون عن خدمة ذلك الفن الرفيع عينه . وقلت للامير ، لو كنت شاعرا لنظمت قصيدة مطلعها « ليتني كنت هزاز ردف » !!

فجاوبني الامير برسالة فكهة قال فيها انه عرض كلامي على بعض جلسائه ، فنظم احدهم ـ ولم يذكر اسمه ـ هذه الابيات (وانا استعيدها من الذاكرة ،وارجو ان تحريفا وقع فيها) :

ليتني في النجاد هزاز ردف	اتقن الرقص بين عود ودف
يفرم الالف صاحب القلم الحر	ويعفى الرقاص من دفع الف
هكذا يصبح الاديب ويمسي	في نطاق الجهال صاحب ردف

وكتب لي في احدى رسائله بانه اوصى بان ينقش على قبره هذا البيت :

ام اللغات قضيت العمر اخدمها	فهي الشفيعة في غفران زلاتي

وقد فهمت من كتاب صديقنا الدكتور عدنان الخطيب ان هذا البيت قد نقش فعلا على ضريح الامير العظيم ، وفيه اختصار مركز للرسالة التي عاش الشهابي يخدمها ويؤديها حتى انتهت حياته والقلم في يمينه .

ومما حدثني فيه الامير الشابي غير مرة ان من اكبر المهام التي ينبغي للمجامع الاضطلاع بها تربية اجيال متلاحقة من العلماء تحمل رسالة العلم وتنقلها الى الاجيال التالية . وان اكبر خطأ تقع فيه المجامع هو ان يقال عن اعضائها انهم لا يستخلفون . وتطبيقا لهذه النظرية البعيدة الرؤى ، جرى الامير الشهابي على تطعيم مجمع دمشق بدم جديد من شباب العلماء ، فدخل المجمع شبان من امثال الدكتور عدنان الخطيب والدكتور شكري فيصل ، وهما الان من العمد الرئيسية التي تنهض عليها رسالة المجمع الدمشقي . ومن قبل عين العلامة محمد كرد علي العلامة بهجة الاثري عضوا في مجمع دمشق وعمره ٢٨ عاما .

ولا بد من الاقرار هنا بان من آيات الامير الشهابي الجليل انه انشأ مودة وتقى بيني وبين الدكتور عدنان الخطيب ، فعرفت في هذا الرجل النبيل كيف يكون التواضع مع الكبرياء ، وكيف يكون الوفاء مع الانصاف والبذل ، وكيف تكون الاريحيات طبيعة في النفس .

وما كان الامير الشهابي في حاجة الى من ينبهه الى واجبه المجمعي ، ولكنني ـ بصلعكتي التقليدية ـ انتهزت فرصة استمتاعي بمودته وثقته ، واستفللت فتحة صدره لي ، فقلت له في بعض رسائلي : انني لادهش كيف ان المجامع القائمة لا تضم الى عضويتها رجالا باذخي الفضل مثل فؤاد صروف ومحمد جميل بيهم ونظير زيتون ومحمد عبد الله عنان . فما كان من الامير الشهابي الا ان استصدر من مجمع دمشق قرارا بتزكية انتخاب الثلاثة الاول لعضوية المجمع الموحد تاركا لمجمع مصر ترشيح العضو المصري . ففاز صروف ونظير زيتون بالعضوية ، ولكنهما سرعان ما « طارت » منهما بطيران الوحدة !

وكنت اعرف عن الامير الشهابي اعجابه الشديد بعباس محمود العقاد واشادته به في كثير من احاديثه الخاصة والعامة وكتاباته هنا وهناك . ولكنني حين راجعت القوائم الخاصة بالفصول التي كتبت عن الامير الشهابي باقلام ادباء عصره ، لم اقع على شيء للعقاد . وكنت ازور العقاد فسألته لم لم يكتب شيئا عن الامير الشهابي ، فقال : بل سأكتب . قلت له : لقد صدر للشهابي معجم جديد في المصطلحات الحراجية ، فلم لا تكتب عنه ؟ فقال: اعرني نسختك يومين اثنين ، وسترى رأيي فيه . واستعار العقاد نسختي ، وبعد يومين كان مقال العقاد عن هذا المعجم بين يدي ، وهو مقال قراه باغتباط وشكران الامير الشهابي مقرا للعقاد بموسوعية ذهنية هي والعبقرية ندان. ولم استرد نسختي من هذا المعجم من العقاد الا بعد ان قدمت اليه نسخة ممهورة بامضاء مصنفه .

وقد اسدى الدكتور عدنان الخطيب خدمة جلى للباحثين بالكتاب الذي اصدره عن الامير مصطفى الشهابي، وبالقوائم التي اوردها مشتملة على بحوث الامير ومحاضراته ودراساته . وقد راجعت هذه القوائم ، فوجدتها اغفلت ما كتبه الامير الشهابي في تقريظ الكتب ، وهي فصول كثيرة . كما لاحظت ان القوائم تخلو من ثبت بالدراسات التي كتبت عن الامير الشهابي وعن كتبه المختلفة ، وهي

عتاب

اذبت قلبي دموعا * اسرت روحي ولوعا
اطلت ليلي سهادا * حرمت فجري طلوعا
اذقت شوقي بعادا * سلبت زهري ربيعا
نثرت عهدي رمادا * جعلت جمري ضلوعا
نسيت مني ودادا * حسبت عذري النزوعا
خلبت مني فؤادا * تراه دوما صديقا
عرفت اني شهيد * فما رحمت الصريعا
رأيت اني وديد * رددت ودي شفيعا
وجدت اني جليد * فخلت صبري خضوعا
صبرت في الهجر دهرا * وكنت طوعا مطيعا
وصنت في الحب سرا * وددت الا يشيعا
دفقت ذا السر عطرا * في الريح حتى يضوعا
منيتني بالاماني * فرمت شملا جميعا
وقلت يوم التداني * يسعى الينا سريعا
فمن زمان دهاني * سكنت حصنا منيعا
وقلت هذا حناني * يحيى يتيما رضيعا
ان الهوى من جناني * حاشا له ان يضيعا
وكان رجع الاغاني * صمتا يصم السميعا
قضيت كالليل عمرا * يمضي هزيعا هزيعا
جفوت وازددت جورا * ظلمت هذا الوديعا
بالامس ضيعت حلما * اطلت فيه الهجوعا
واليوم شاهدت وهما * اضحى عذابا وجيعا
ملأت سمعي وعودا * وقلت «لا لن ابيعا»
مضيت عني بعيدا * وقد ابيت الرجوعا
اني على العهد باق * لا تحسبني هلوعا
احيا انا باحتراق * والنار تحيي الشموعا

القاهرة — حسين مجيب المصري

بدورها كثيرة . وهذه وتلك ينبغي ضمهما الى اي طبعة جديدة تصدر من هذا الكتاب .

وكان الشهابي العظيم قد اخبرني ان في نيته اصدار مجلدات متعاقبة من كتابه « الشذرات » تضم الكصول المختلفة التي كتبها في الادب واللغة والمصطلحات والشؤون الجارية . وليس من المستعصي جمع هذه الفصول المختلفة التي كتبها في الادب واللغة والمصطلحات مندرجة في مجلات رصينة مثل المقتطف والهلال ومجلة مجمع دمشق ومجمع القاهرة ، وكلها غير بعيدة التناول . فعسى ان ترى هذه المجلدات النور لفائدة قراء الضاد في كل مكان .

ان الامير مصطفى الشهابي الذي اولاني من محبته واخوته وعطفه وتشجيعه وبره ما يعيش في كياني ووجداني الى آخر الدهر ، رسول عظيم من رسل الضاد. وحسبه انه لما عين محافظا لحلب ، انشأ فيها مكتبة وطنية . فلما عين محافظا للاذقية انشأ دارا للكتب كبيرة. فلما ادركته منيته ، اهدى مكتبته واوراقه الخاصة الى المكتبة الظاهرية في دمشق .

هذه لمحات ، مجرد لمحات ، من حياة الامير الشهابي، لا تدل على علمه ، فعلمه مدون في معاجمه وكتبه وبحوثه، ولكنها تدل على خلقه كأشرف الشرفاء في كل عصر ومصر .

القاهرة — وديع فلسطين

ولد شعبان لاسرة ريفية متوسطة الحال .. يمتلك ابوه بضعة افدنة آلت اليه بالميراث عن والده ... كانت امه ، وهو بعد جنين في احشائها ، تتمناه بنتا تعاونها عندما تكبر في اعمال البيت والغيط ،وكفاها من البنين قرة عينيها محمود وحسن .. قالت لزوجها في اليوم الرابع بعد ولادتها لشعبان :

ـ ما دام الله لم يحقق لي املي يا حاج .. فعلينا ان نزوج محمود .. انني في حاجة الى من تؤنس وحدتي وتملأ علي الدار ..

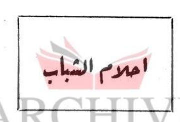
قال الحاج ابراهيم بطيبته المعهودة:

ـ ليكن لك ما تريدين .. اختاري له العروس المناسبة .

لم يمض عام اخر على ميلاد شعبان الا وكان اخوه حسن قد تزوج هو الاخر .. وامتلأت نفوس الاسرة كلها بالتفاؤل ، اطلقوا على العام الذي ولد فيه عام اليمن والبركات ،وتفرغت الام تماما للعناية به.. شب وترعرع متمتعا بحنان امه السابغ ، وحدب ابيه الطيب المهاب الوقور .. لم ينغص طفولته شيء .. التحق بالمدرسة الابتدائية وامه تبثه آمانها، وتشجعه لان يكون في المستقبل طبيبا ، او محاميا ، او مهندسا .. تضرب له المثل باخويه اللذين فشلا وارتبط مصيرهما بالارض يفلحانها .

تمر السنوات ، ويصير الطفل صبيا .. ينتقل الى المدرسة الاعدادية بطنطا .. تضمه رحلة كل يوم الى المدرسة ، ويعود منها بصحبة اقرانه ابناء الموسرين في القرية : ابن العمدة ، ابن مفتش الزراعة ، ابن ناظر المحطة .. ابن البيك الكبير صاحب اكبر الحدائق الممتدة حتى تخوم القرى المجاورة .. كان في ذلك الحين ثمة فتاتان نبغتا دون بقية فتيات القرية ، والتحقتا بمدرسة البنات الاعدادية في طنطا ..احداهما كانت نجوى التي تعيش مع اسرتها في الدار المجاورة لدار اسرته ... كل صباح يخرج من القرية قبل السابعة بقليل ، وفد جيل المستقبل .. تمشي الفتاتان في المقدمة والفتيان وراءهما لحراستهما من معاكسات فتيان القرى المجاورة ، وما اكثر ما حدث من مشاجرات بينهم وبين هؤلاء الفتيان .. طوال سنوات اربع احب شعبان نجوى .. احتفظ بصورتها في خياله ليلا ونهارا ، في النوم واليقظة ..امتلأت كتبه وكراساته باسمها .. عاش يمني نفسه بالنجاح من اجل الزواج منها .

كانت نجوى ريفية الطبع والطابع .. حلوة التقاطيع .. بيضاء البشرة .. ممشوقة القوام .. رشيقة الحركة .. خفيفة الروح .. مبتسمة على الدوام .. رآها اجمل فتيات القرية، يليق به ويسعده ايما اسعاد ان يتزوج منها .. وترعرع الامل في فؤاده .



بقلم جمعة محمد جمعة

كانت احلام الحب مضيعة لشعبان .. نجح في الشهادة الاعدادية بمجموع لم يؤهله لدخول المدرسة الثانوية ، وبتقاعسه في المذاكرة وانصرافه الى احلام الشباب بالحب احبط احلام امه ، بان يكون طبيبا ، او محاميا ، او مهندسا ... التحق بالمدرسة الصناعية ، وتخرج فيها بعد مضي ثلاث سنوات ثم التحق بالعمل في احدى الشركات الصناعية في القاهرة ..

اقترب يوم الرحيل ، وكان قد اعد حقائبه ولوازمه ، وارسل رسالة الى احد اقارب امه ليعد له مكانا في العاصمة ، يجعله مقاما له .

وجاء يوم الخميس اخر ايامه في القرية .. خرج في المساء ،والعصافير تغرد بلا انقطاع تلهو وتمرح .. على شجرة التوت القائمة عند نهاية المشى الممتد بين الحدائق .. وقف شعبان ينتظرها .. وجاءت نجوى .. امسك بمرفقيها قائلا في وله :

ـ انني راحل غدا يا نجوى .

اطرقت براسها في خفر وحياء قائلة :

ـ بالسلامة ..

ـ وقف حائرا لا يدري ما يقول.. يهز راسه .. يتلفت .. قال بعد جهد :

ـ هل تحبينني يا نجوى ؟

ـ قالت : تعرف ما في قلبي يا شعبان .

قال وارتعاشة سعيدة تغشى عينيه :

ـ هل اعيش في الغربة على امل انتظارك حتى اعود لطلب يدك ؟

العصافير تقفز حولهما .. ازداد صخبها ومرحها .. رقصت فوق راسيهما رقصة الوداع ، اذ كان ضوء النهار يهبط نحو الارض تحت ثقل ظلام الليل المقبل ... ضحكت نجوى وهي تمسك بعصفور غافلته وانقضت لتمسك به في مهارة وخفة، وقال شعبان ضاحكا :

ـ يا لك من صيادة ماهرة .

امسك بيدها القابضة على العصفور مردفا :

ـ اطلقي سراحه ..

نظرت اليه بخبث قائلة، وحاجباها يرتفعان الى اعلى ويستقران في ثبات :

ـ هل ترى ذلك ؟

قال وهو يفك قبضتها :

ـ اجل .. دعيه يحيا .

اعلنت نجوى غضبها بان ادارت له ظهرها واخذت تجد في السير نحو بيوت القرية ، وشعبان يجد في اثرها مضطربا وجلا :



ـ انتظري يا نجوى .. لم ننته من حديثنا .. لم نتعاهد على دوام حبنا ..

اقترب منها وامسك بذراعها يستوقفها .. اصابه الجمود والشلل وهي تنتزع ذراعها من يده صارخة :

ـ دعني .. قلت لك دعني ..

هرولت مسرعة .. يتابعها بعينيه دهشا .. بماذا يفسر تغيرها من حال الى حال .. تاه عقله في غياهب الشرود والظنون ، وبعد اخذ ورد بينه وبين نفسه قال : « ماذا كنت انتظر منها ؟ .. ان تبكي .. ان تلقي بنفسها بين ذراعي متوسلة بدموعها الا ارحل ؟.. يا لي من طماع .. ماذا بيني وبينها حتى يدفعها الى ذلك ؟» .

مشى شعبان نحو البيت حزينا مهموما .. يكاد من فرط حزنه يبكي .. لقيته امه فقالت فزعة :

ـ مالك يا شعبان ؟ .. ما سبب شحوب وجهك ؟ .. هل تعاني مرضا ؟

لم ينبس شعبان بكلمة .. اخذ طريقه الى قاعة الضيوف .. جلس بجانب حقائبه المعدة للسفر ، دخلت امه في اعقابه تلاحقه بالاسئلة .. نظر شعبان الى وجهها متفرسا .. قال فجأة :

ـ امي .. هل تمانعين في ان اتزوج ؟

ضربت امه صدرها بيدها قائلة :

ـ انا .. يا ريت يا حبيبي ... اعرف يا بني ان الغربة مفسدة للشباب .. كما اعرف الكثير عن بنات مصر .. سمعت كثيرا عن سلوكهن والاعيبهن .. بالامس فقط حدثت ابيك الحاج في هذا الموضوع ..جميل منك ان تعلن رغبتك هذه .

ثم ضحكت وهي تساعده على النهوض مستطردة :

ـ ومن هي سعيدة الحظ ؟

قال شعبان وهو يقبل وجنتيها :

ـ نجوى يا امي .. قبل عودة ابي اذهبي لامها وحدثيها في الموضوع .. انت الخير والبركة .. وخير البر عاجله .

شتان

التقيت في جزين ، المصيف اللبناني الشهير ، سريا كهلا ، غاية في الحمق والسخافة ، وكانت معه زوجه الشابة الجميلة المثقفة السيدة منيرة ، وكانت راجحة العقل ، سامية الخلق ، فاثارني التفاوت الشديد بين الزوجين ، فقلت :

شتان بين منيرة وقرينها ... شتان بين جماحه وسكونها
شتان بين خريفه وربيعها ... وقبيح طلعته وسحر فتونها
وغباء ونهيته وومض ذكائها ... وصقيع همته ولفح اتونها
وجنون عاصفه ورفق نسيمها ... وبوار حجته وصدق ظنونها
وثقيل مجلسه وخفة ظلها ... وكدر منبعه وصفو معينها
ايقيس في الدنيا الصحارى ذو حجى ... برياضها مخضلة وعيونها
وبزهرها الفواح يرتشف الندى ... وبطيرها تشجي الورى بلحونها
اني عرفت الورد من اشواكه ... لما اتت مصحوبة بقرينها

محمد العدناني

وبعد اخذ ورد بينه وبين امه ذهبت .. جلس شعبان في انتظارها كانتظار الغريق لقشة تنجيه من الغرق .. يقف .. يخرج ليطل من باب الدار .. يدخل .. يخرج متلهفا الى وجه امه فعندها الخبر اليقين ..

جاء ابوه الحاج متعجلا :

ـ تعالى يا شعبان صب لي الماء .. اوشك المغرب أن يفوتني ..

انشغل شعبان بعض الوقت مع ابيه .. ثم في الحديث مع اخيه محمود الذي جاء يجر وراءه البهائم .. ثم جاءت الام وانشغلت في اعداد العشاء ، وكلما اقترب منها ابتعدت هي عنه .. كلما سألها :

ـ اجابت : انتظر ..

جلسوا جميعا للعشاء ، شعبان يلوك الطعام دون شهية .. ذهنه شارد .. خياله يلازم نجوى في دارها .. يحاول تخيل المفاجأة عليها ... هل قبلت؟ .. هل رفضت ؟..وتطلع الى وجه امه ورأى دمعة جافة ..

افاق شعبان من لحظة تكثف فيها الماضي بكل ذكرياته ، وتعجب كيف امكن للخيال ان يعيد هذه الذكريات لمجرد ان راى نجوى وبصحبتها عايدة ابنة عمه تقتحمان القاعة في اول لقاء منفرد مع خطيبته ليلى ، وزوجته بعد ان اتم عقد القران في موكب دموي امس .. كانت لحظة مشابهة .. شعر بقدميه تدفعانه الى مغادرة القاعة .. فمنذ عدة سنوات خرج بنفس الاندفاع حاملا حقائبه للسفر بعد ان اعلنته امه برفض نجوى الزواج منه .. هرولت ليلى تستوضحه سبب خروجه من القاعة .. قال متضايقا :

ـ سأجلس مع ابيك حتى يخرجا .

نظرت ليلى طويلا في عينيه ... جعلته نظرتها يشعر بالارتباك ... اغض بصره وهو يدفعها في حنان الى القاعة لتتقبل التهاني .

القاهرة — جمعة محمد جمعة

تاج الملوك بين البطولة والشعر

بقلم سكينة الشهابي

***

مهما عمل المحققون ، وجهد المنقبون والباحثون فان التراث العربي لا يزال يحتاج الى الكثير من عناء النهار وسهر الليل حتى تبدو لنا صفحته المشرقة على حقيقتها.

هناك آلاف المخطوطات تستصرخ الضمائر العربية الحرة .. تهيب بالعقول المفكرة ان تنفض عنها الغبار ، وهناك آلاف الدواوين الشعرية تتطلب الجهود الفردية والجماعية تستدعي الابناء الذين يريدون ان يبنوا ثقافتهم على اساس صلب متين تطلب منهم ان يمسحوا الغبار ويزيلوا الصدا ليستجلوا احاسيس آبائهم واجدادهم كاملة فالذي لا يعيش الماضي لا يستطيع ان يسمو بالحاضر والعمل المحدود لا يجدي في التراث الضخم . فليدع بعضنا بعضا من اجل العمل البناء المثمر ، وما أكثر السبل لمن يريد الوصول.

قلت هذا وانا اقرا ديوان « تاج الملوك » والم الخطوط الرئيسية لصورته من كتب الادب والتاريخ .. من ساحات المعارك ومن حقول الشعر ، فادهش لشاب صغير لم يعش اكثر من ثلاث وعشرين سنة يخلف لنا ديوانا ، صغيرا في عدد اوراقه كبيرا في معناه حين يصدر عن أمير من امراء بني ايوب أمضى حياته متنقلا يتتبع خطوات اخيه صلاح الدين في معاركه المتلاحقة.

تاج الملوك هذا هو بوري بن ايوب اصغر اخوة صلاح الدين سنا ، ولد سنة ٥٥٦ وكان اسرع اخوته لتلبية داعي المنون ، توفي في ريعان الشباب سنة ٥٧٩ فظل شعره باقة رقيقة في رياض الشعر العربي الوارفة ولم يكتب لموضوعاته ان تتنوع ولا لشاعريته ان يفزر نتاجها.

توفي تاج الملوك في حصار حلب .. في المعركة الاولى التي خاضها صلاح الدين في سبيل افتتاح المدينة ، وكانت وفاته اثر طعنة اصابت ركبته ، لم يطل مكثه بعدها غير اربعة ايام.

يقول صاحب « البرق الشامي » في حديثه عن اول معركة خاضها صلاح الدين في حلب (١) : « وتاج الملوك موقد نارها وخاض تيارها ، ومضرم حربها ومغرم حبها ومتيم كربها ومتيم طعنها وضربها ».

ومثل هذا الكلام يوحي لنا بأن تاج الملوك كان البطل المقدم في الحملة ، يزكي نيران الوغى ببسالة وقوة وهذا يعني انه كان فارسا شجاعا يرافق اخاه صلاح الدين في حملاته.

ولكن الكتب التي روت الكثير عن صلاح الدين وحروبه الطاحنة لم تذكر لنا اعمالا بطولية قام بها تاج الملوك في تلك الحروب ، وبمعنى أوضح لا نجد اي حديث عن تاج الملوك وبطولته قبل حوادث سنة ٥٧٩ حيث يخوض صلاح الدين اولى معاركه في حلب في هذه المعركة بالذات يقتل « تاج الملوك ».. فبأي شيء نستطيع تفسير سكوت المراجع عن التنويه ببطولة تاج الملوك ، انقول انه لم يحتل في تلك المعارك مكانة بارزة . على الرغم من انه كان بصحبة اخيه في حله وترحاله وقد حدثنا في شعره عن تنقله المستمر بصحبة الجيوش ولكنه لم يكن دائما راضيا عن هذا التنقل ، وربما جاز لنا ان نقول انه كان في كثير من الاحيان مكرها على مرافقة الجيوش .. يسير الى المعركة برما ساخطا ويتنقل من مكان الى مكان دون ان تكون له الرغبة الكافية في هذا التنقل ، يبدو لنا شيء من ذلك في شعره اذ يقول (٢) :

اذا كنت في الحالين لم اخل منهما ... حرائب ليست تنقضي وحروب
ولست بمنفك ارى ما يسؤني ... لقاء عدد او فراق حبيب

ولا يعني هذا انه كان دائم البرم والسخط ، فالنصر المتلاحق قد ينسيه نيران الشوق وآلام الوجد ، يقول في مدح اخاه العادل متشوقا الى مصر التي غادرها تلبية لنداء الواجب متحدثا عن المعارك التي خاضتها جيوش الايوبيين في الطريق (٣) :

اليوم جاوز في مقداره الكمد ... شوقا فلا وجد الا دون ما اجد
قل للمقيمين في مصر وان نزحوا ... اني مقيم على العهد الذي عهدوا
ويوم غارتنا لم انسه ابدا ... وقد تقبض قوما بعدما رقدوا
واقبل الشوبك الممنوع جانبه ... وقد اطاف به الطبانة النجد
ثم اجتنينا ببيض الهند ما غرسوا ... والنار ما زرعوا فيه وما حصدوا

لاشك ان شاعرنا في ابياته هذه مزهو بالنصر وزهوه هذا خفف بعض ضيقه وجعله يصعد شيئا من مواجد نفسه الشاعرة ولكننا لا نستطيع ان نقول بحال من الاحوال انه غدا كالمتنبي شاعرا فارسا ينتظر اللحظات الحاسمة في ميادين الشرف ليروي سيفه في رقاب الاعداء ، هذا شيء لم يعبر عنه في شعره ولم تحدثنا عنه الكتب التي ترجمت له .. وكل ما يمكننا قوله انه كان يخوض المعارك ، ولا يوجد ما يؤكد لنا انه كان يلعب دورا هاما في هذه المعارك ، وربما جاز لنا ان نعلل ذلك بحداثة سنه ، حتى اذا كانت معركة حلب بدا لنا شابا قويا يتقدم الصفوف ببسالة نادرة فيخر صريع الواجب ويفقد صلاح الدين بموته اخا حبيبا ومناضلا شجاعا.

والمصادر كلها تجمع على كريم خصاله ونبل اخلاقه ورقة طبعه . يقول العماد (٤) : « نشأ بالفضل متشبثا وبالفصل متحدثا وبالنبل متبعثا ، له الفطرة الزكية والهمة العلية » . ويقول شهاب الدين المقدسي — (٥) : وكان تاج الملوك شابا حسن الشباب مليح الاعطاف عذب العبارة حلو الفكاهة مليح الرمي بالقوس .. وكان قد جمع الى ذلك الكرم واليقين في الادب ».

ويقول ابن خلكان (٦) : « ... وكانت فيه فضيلة.»
اما ابن تقري بردى فانه يؤكد ما قيل في كتب سبقت نجومه حين يقول (٧) : « وكان قد جمع فيه محاسن الاخلاق من مكارم وشيم ولطف طباع مع شجاعة وفضل وفصاحة» ولو حاولنا رصد بقية المصادر لما وجدنا في حديثها عن الشاعر جديدا لاننا سنرى اللاحق منها ينقل عن السابق.

وهذا يجعلنا نستوضح حقيقة ربما بدت لنا لا لبس فيها وهي ان الشاعر كان يتحلى بالفضائل وكريم الخصال بالاضافة الى الذكاء والشجاعة وقد يعن لنا انه لو طالت به الحياة لقام بأعمال جليلة تضاهي اعمال اخيه صلاح الدين ولغذى مكتبتنا العربية بوافر نتاجه ورقيق شعره ، ولكن المنية عاجلته فخسرنا في ميدان البطولة كما خسرنا في ميدان الادب.

ولكن هذه الصورة العظيمة التي يتراءى لنا فيها الشاعر قد تتضاءل قليلا حين نتذكر انه كان اميرا واخا لسلطان عظيم .. فنتردد في قبول عبارات الثناء الفضفاضة التي حاكها له معاصروه ويزداد ترددنا في قبولها ونحن نسترجع في اذهاننا اسلوب المبالغة الذي كان سمة بارزة لكتاب ذلك العصر وعلى رأس هؤلاء الكتاب العماد الكاتب الذي نعتبره اهم من ارخ لهذه الفترة ادبا وسياسة ، لان العماد لم يكن معاصرا فقط بل كان مرافقا بصلاح الدين حتى الذين جاؤوا بعده اعتبروه موردا لهم وعولوا عليه في نقل الاخبار . فهذا سبط بن الجوزي في مرآة الزمان يقول عن تاج الملوك : « وكأن الله قد جمع فيه مكارم الاخلاق ولطف الطباع ، وكرما وشجاعة وفضلا وفصاحة » فهذه العبارات تبدو كأنها ترجمة كاملة لما جاء في خريدة القصر ولكن الاسلوب هنا اكثر وضوحا وبساطة ونزداد اطمئنانا الى ان سبط الجوزي ينقل عن العماد حين نجده يقول : « وله ديوان شعر ذكره العماد في الخريدة واثنى عليه وانشد مقطعات من شعره .. » الا يدلنا هذا على ان صاحب مرآة الزمان كان ينظر في الخريدة قبل ان يخط سطرا عن الشاعر ؟

نستطيع ان نقول بشيء من الاطمئنان ان تاج الملوك كان شابا ذكيا رقيق الطباع حلو المعاشرة، اراد صلاح الدين ان ينشئه على الاستقامة والفروسية والشجاعة . ولكن طبيعته الخاصة كانت الغالبة فكان يصرف اكثر وقته في العبث وقول الشعر الماجن هذا ما يؤكده لنا شعره فقارىء ديوانه لا يراه متحرجا ولا متسترا في تعبيره ، وربما لمح العماد بشيء من هذا في الخريدة حين قال : (٨) «واستبعد اخوه الملك الناصر منه قول الشعر فقال :

ايا ملكا ما زال يفعل جوده ... على سائر الحالات ما يفعل القطر
اتنكر نثر الدر من بحر خاطري ... وتعلم ان الدر مسكنه البحر

ولا شك ان صلاح الدين لا يستبعد من الشعر الا ما كان ماجنا متهتكا ، فليس من المعقول ان يستبعد قصيدة مديح او شعرا حماسيا قيل في معركة انه يستبعد وصف الغلمان والشوق اليهم ، ذلك الذي استملحه واستطرفه اما صلاح الدين القائد فانه لم يعجب به ولم يستطرفه يقول العماد (٩) :

« وانا استطرف منه هذه الفتاءة وطرق نشأته وانشاءه واستبدعه ولا استبعده ».

وفي اعتقادي ان المصادر لم تقتضب الحديث عن حياة تاج الملوك الا لانه لا يوجد في هذه الحياة ما يرضي السلطان العظيم صلاح الدين . وربما كانت معركة حلب هي المعركة الوحيدة التي خاضها تاج الملوك ببسالة وشجاعة ، والا لما وقف مؤرخو القرن السادس في سنة ٥٧٩ ليحدثونا عن موت الشاعر وعن ملابسات هذا الموت ، اما تلك السنوات التي سبقت ، والتي نعتقد ان شاعرنا كان فيها شابا ، وكان رفيق اخيه في المعارك فاننا لا نجد فيها ما يرفع ذكره ويعلي شأنه .. لا نجد حديثا عن بسالته وشجاعته وفضائله مع الامثلة التي تؤكد هذه البسالة وتلك الفضائل .

هل نستطيع ان نقول اذا ان حديث الكتب عن فضائل الشاعر لم يكن صادقا كل الصدق ، ولعله ليس اكثر من تملق يلقى بين يدي السلطان ، ومما يقوي فرضنا هذا غزله بالمذكر واستهتاره بشعائر الدين ، ولنا في غير مرجع من المراجع التي تحدثت عن الشاعر اكبر دليل على رقة دينه وعبثه بالفرائض.

مما تقدم نستطيع ان نقول ان تاج الملوك كان شاعرا رقيقا جياش العاطفة حسن الهيئة ولكننا نشك في كثير من الفضائل التي البسته اياها كتب الادب والتاريخ ، يدعونا الى هذا الشك تلميح العماد من جهة وديوان الشاعر من جهة ثانية .

لقد كان تاج الملوك شاعرا قبل ان يكون بطلا مقداما.

دمشق — **سكينة الشهابي**

(١) البرق الشامي ج ٢ ص ٧٩ .
(٢) و (٣) مصورة الديوان ص ١٢
(٤) الخريدة بداية قسم شعراء الشام ص ١٢٤
(٥) الروضتين ٢/٤٤ .
(٦) وفيات الاعيان : ١/٢٩٠
(٧) النجوم الزاهرة ٦/٩٦
(٨) الخريدة بداية قسم شعراء الشام ص ١٢٨
(٩) مرآة الزمان ١/٢٤٠ وانظر الديوان

محمد عبد الحليم عبد الله

بمناسبة ذكرى وفاته ٣٠ – ٦ – ١٩٧٥

بقلم زغلول عبد الحليم عبد الله

* * *

شعور بالغربة . شعور بالاختلاف . تنمو الغربة داخله . وينمو الاختلاف خارجه . يجعله نمو الغربة اكثر احساسا بها مما يدفعه الى الاختلاف في اكثر الاحيان ، ويجعله نمو الاختلاف اكثر احساسا بالغربة في الوقت الذي يحاول فيه مخرجا مستخدما مختلف الطرق . الصراع النفسي المحض والمجهود الذهني المستمر . الانفعال الذكي العميق الذي يحتمل معه ان يدمر صاحبه . قدرة عظيمة على التنبؤ سرعة انتاج عدد كبير من الافكار في موقف واحد ، سرعة انتاج صور ذات خصائص معينة محددة المعنى ، سهولة في صياغة الكلمات بطريقة ملائمة لا تفقدها الاتصال ، القدرة على اعطاء صور مختلفة لشيء واحد في وقت قياسي . الارق الذي لا يزول الا بايجاد الحلول .

الكمال لا يبلغ الا في الجمال الذي لا يذبل . كبرى امانيه في وقت تمنى واشتهى ان يكون الكمال في الجمال الدائم . وقد يبلغ الكمال في نظره حد التمرد « الباحث عن الحقيقة » وقد يتعثر الكمال في الطريق «البيت الصامت» والكمال هنا ليس يعني فقط الكمال الاخلاقي . الانطلاق بلا حدود . تقيد الفكرة يعني موت الفكرة . « ان مصدر الهام الكاتب هي قضاياه المخجلة » . الكمال في الجمال ، الكمال في التمرد ، وايضا يرى الكمال في صورة اخرى ، الكمال في الفعل تجاوز الان « للزمن بقية » . لا تتمرغ الشخصيات في الوحل الا اذا كان قانون الموقف يتطلب ذلك ان التمرغ في الوحل ليس هو كل شيء . يشتد الاعجاب بالشخصية فيعطي بعض منه لها «عزت في سكون العاصفة» وقد تسيطر عليه الشخصية قبل ان يشرع في ابداعها فتنمو داخله (عبد العزيز في بعد الغروب) وتنمو الافكار مع نمو الشخصيات فتنمو فكرة الموت جعل (شكري بطل سكون العاصفة) يأخذ الحياة (شهوة وشهية) ونمو الخوف داخل قلب (طه النجومي في للزمن بقية) جعله يحطم كل القيم . الشعور بالنقص لا يكفي ليقام ثورة بل لا بد ان يرتبط بالثقافة « للزمن بقية » وايضا « قصة لم تتم » . يؤرقه البحث عن الغد شانه شأن العبقري ، لم يجد التآلف الذي حكى له عنه الادباء ، فضرب في الارض ليجد نوعا من التآلف يرتاح له القلب وتستقر له النفس (سلمان الفاري في الباحث عن الحقيقة) . وسلمان لم يعط القدرة على التعبير الجذري للنظام القائم بل غير ذاته فقط . فهو بطل متمرد اما (صلاح النجومي) اراد التغيير الجذري فهو بطل تجاوز الذات الى الاخرين ومن ثم عقد بينه وبينهم صلة .

قدرة فائقة على الاختزان تسندها موهبة ادبية عاتية جعلته يميل الى ما يسمى بظاهرة الالحاح في الوصف فبدل ان تحسب له حسبت عليه ، وكأن الاختزان الذي جعل اسلوبه قريبا من الشعر خال من التقعر والغرابة ، جعله غريبا . محفورة هي الكلمات في ذاكرته منذ الطفولة . مليئة هي طفولته بالغرائب . لا يفلت من قبضة ذاكرته شيء . لا يعرف تكنيكا سوى الدقة في الرؤية . ان موهبة الملاحظة هي التي تولد ظاهر الالحاح . البناء الادبي يتجه الى العمق وليس فوق سطح الارض . الى عمق الفرد . الى الداخل . ولا يستطيع الاتجاه الى العمق الا من يقدر على الرؤية المستقبلية .

وان تحرقوا القراطيس لا تحرقوا الذي — تضمنته القراطيس بل هو في صدري
يسير معي حيث انتقلت ركائبي — وينزل ان انزل وتدفن في قبري
ابن حزم

اختيار الوقت المناسب . تهيئة الجو الملائم . الاستعداد النفسي بهذا تحدد عين الكاميرا اللقطة الماهرة البارعة التي يجب ان تخلد . عين لكاميرا بداية التنبؤ بالاحداث التالية التي تستند الى الواقع . لم يجد سلمان الفارسي في قصة الباحث عن الحقيقة في واقعه ما يرضي نفسه الباحثة فتطلع الى ايجاد نوع من التآلف يرتضيه ويملأ الفراغ الكبير الذي يحتل قلبه . وهنا اتيح لعين الكاميرا ان تأخذ اللقطة . لا تقرير للحوادث . لا تفصيل . النتائج كما تفرضها الضرورة الفنية ليس الا . حتمية العلاقات تفرض النتائج .

بدن فارغ من اشغال الدنيا ، بطن فارغ من طعام ، يد خالية من عروض الدنيا ، التفكر في الايات والعاملات ، التفكر في الثواب والعقاب . اليد وحركة اليد ، القدم وحركة القدم ، قد يعطي الله اليد لمخلوق ويأخذ حركة اليد من الآلاء وحركة اليد من النعماء .

وكلنا مسافر غريب ، قوافل الرحيل في تتابع بديع ، فهناك قوافل تملك من الزاد ، ما يغني عن السؤال وتملك من الحب ما يؤنس الطريق ، واخرى لا تملك من الزاد الا صوره القديمة : الحيلة ، التهديد . السيف . الوعيد في وقت فيه القافلة بلا امير !

اجارتنا انا غريبان ها هنا — وكل غريب للغريب نسيب
امرؤ القيس

واجدني مع يحيى بن خالد البرمكي الذي قال لابنائه : ان قدرتم ان تكتبوا انفاس كلثوم بن عمر فافعلوا، فلن ترون ابدا مثله !

القاهرة — زغلول عبد الحليم عبد الله

صوت الله

الى التي سألتني عن الشاطئ المهجور

•

الدكتور احمد مطلوب

•

جامعة الكويت



شاعرتي
ما الشاطئ المهجور الا غربة النوى
وحرقة الجوى
وامل هوى
وفرحة كانت تطوف ها هنا
تقبل الحياة في حنان

شاعرتي
قد جاء صوت الله من علاه
يبشر الشاطئ في ضحاه :
لن يكذب الرائد اهله
او يفقد الانسان ظله
لن يسقط الانسان

شاعرتي
ان حياتي كلها شموع
وزهرة تضوع
وعالم رحب الخطى
لا يعرف الونى
لا يعرف الدموع

شاعرتي
سيرجع الربيع
ويرقص الشراع
ويطرب الموج على ايقاعه البديع
وتخصب الحياة في مرافئ الامل
سيخصب الامل

شاعرتي
غدا اراك زهرة تطوف
تحدث الانسام والسحر
فيضحك القمر
وتورق الحياة من جديد
في الشاطئ المهجور

الفريد البستاني

١٩١٠ - ١٩٦٩

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

•••

لقد اخذنا على انفسنا عهدا في تتبع ما يخص الدراسات الاندلسية ، وما يشمل تغطية ميادينها في مجالات الثقافة العامة والادب ، كالشعر والنثر والنقد والدراسة والرحلات والقصة والرواية والمخطوطات والمستشرقين وغير ذلك.

ولقد تجمع لدينا منها ما يعتبر كنواة لمكتبة اندلسية صغيرة متكاملة ، تنفع الباحثين في هذه الميادين ، وترشد الدارسين في هذه الحقول ، التي تتصل بالاندلسيات والاندلسيين .

وقد مضت علينا سنوات ، ونحن نتتبع خطى الرائدين ونجمع ونسجل اسماء وآراء المؤلفين . ونقتني ما نقدرعليه من الذي تخرجه ثمرات المطابع العربية والاوروبية في دنيا الادب الاندلسي وتاريخه ورجاله.

ومن بين هذه الحقول التي جعلناها في هذه الحصيلة حقل الرواد الذين زاروا الاندلس واستطلعوا تاريخها وجغرافيتها ومجتمعها ، وآدابها . واخذتهم روعة الحضارة العربية والاسلامية فيها.

فكتبوا ونظموا وارخوا لها وتحدثوا لنا عن انطباعاتهم عنها ، وما خلفته تلك الديار في نفوسهم وذاكرتهم . ولقد سبق لنا ان كتبنا دراسات عن المخطوطات الاندلسية والمستشرقين الاندلسيين (الاسبان) ، واثر الاندلس في الشعر العربي . واليوم نقدم رائدا من سلسلة (رواد الاندلس) في العصر الحديث . الا وهو المرحوم الاستاذ الباحث المحقق الفريد فرام البستاني ١٩١٠ - ١٩٦٩ . ترجم له من المعاصرين الاستاذ الدكتور البحاثة المفهرس الاخ يوسف اسعد داغر في كتابه «مصادر الدراسةالادبية» ج - ٣ - القسم الثاني ص - ١٤٤١ . وجعل من مؤلفاته كتبا قام بتحقيقها ، واعتمد على كتاب اسماه « كوثر النفوس » لم نطلع عليه .

والبستاني (الفريد) هو من اسرة علمية لها مجد شامخ في التاريخ العلمي والادبي في الشرق العربي منذ بداية عصر النهضة واليقظة العربية الحديثة . منهم العلماء والادباء والشعراء ، امثال المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) وميخائيل البستاني (١٨٦٨ - ١٩٣٤) الخوري بطرس البستاني (١٨٧٦ - ١٩٣٣) وسليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥) وعبد الله البستاني (١٨٥٤- ١٩٣٠) ووديع البستاني (١٨٨٦ - ١٩٥٤) وسليم البستاني (١٨٤٨ - ١٨٨٤) وبطرس سليمان البستاني (١٨٩٥ - ١٩٦٩) .

وكل هذه الكوكبة وغيرها من الطلائع البستانية في الوطن والمهاجر ، وفي عالم العلم ، والاقتصاد والصناعة . كانت جميعها تترك وراءها مسارب من العلم والثقافة والخدمات الاجتماعية ، بحيث لا يستطيع احد من الجاحدين او الناكرين التغاضي عن ذكرها بالمحامد والاعجاب .

ويأتي في مقدمة هذه الاسرة اليوم شهرة علمية ومكانة اجتماعية ونتاجا ادبيا رائعا ، وخدمة في ساحة الثقافة العامة صاحب « الروائع » ومنشئها الاستاذ الجليل العلامة الدكتور فؤاد افرام البستاني ، شقيق المرحوم الاستاذ الفريد البستاني المولود في (دير القمر) ذات الشهرة العلمية في اوساط المدن والقرى اللبنانية. والتي عدد جملة من نوابغها الاستاذ الفاضل الجغرافي عفيف بطرس مرهج في كتابه الموسوعي « المدن والقرى اللبنانية » في تسعة مجلدات غنية بالمادة ، مزينة بالصور .

وصف لنا الاستاذ الفريد البستاني صاحب (المصادر الادبية) بقوله : « باحث لبناني ، مدقق ، انقطع للتحري عن المخطوطات العربية والعمل على نشرها مخدومة للبحث والتحقيق . »

كانت دراسة الفريد الاولى في مدينته دير القمر درس في معهد الفرير ـ وعلم في معهد عين ورقة - وفي دير مشموسة . ثم دفعت به الهجرة الى المغرب الاقصى سنة ١٩٣٨ حيث زار اسبانيا بعد حربها الاهلية . واتصل بمعاهد ودور مخطوطاتها ، وتعلم اللغة الاسبانية واجادها اضافة لاتقانه العربية والفرنسية . واستطاع بهمته وتدبيره العلمي ، وفهمه الثاقب ان يبعث الحياة والنشاط في معهدي الجنرال فرانكو للابحاث العربية - الاسبانية . ومعهد مولاي الحسن بتطوان . ولم نر له مؤلفا مطبوعا يخصه بذاته . بل انصرف الى التحقيقات والتحري عن المخطوطات في المغرب واسبانيا .

واحياء المخطوطات ونشرها والقيام بتحقيقها - كما قام به البستاني - شاقة ذات مسؤولية ادبية وتاريخية تتسامى احيانا عن التاليف الشخصي المنفرد بموضوع من المواضيع .

من ابرز ما نشره وحققه :

قام المرحوم الفريد البستاني وهو في غربته عن لبنان وفي حياته في المغرب العربي واسبانيا وفي ربوع الاندلس باحياء بعض النفائس الاندلسية والمغربية منها :

١ - كتاب الكليات - لابن رشد الذي نشره في

العرائش سنة ١٩٣٩

٢ ـ رحلة الوزير في افتكاك الامير للغساني . نشره في العرائش سنة ١٩٤٠ .

٣ ـ نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ـ للغزال نشره في العرائش سنة ١٩٤١.

٤ ـ الابحاث السامية في تاريخ المحاكم الاسلامية للشيخ المرير . نشره بتطوان سنة ١٩٥٢.

٥ ـ دراسة عن الموسيقى الاندلسية نشرها في المغرب سنة ١٩٥٦ .

وقد كتب عن المقتضب من تحفة القادم لابن الابار البلنسي المؤرخ ، والكاتب ، والشاعر الاندلسي المعروف في مجلة « المشرق » السنة الحادية والاربعون ـ يوليو ـ سبتمبر ١٩٤٧ ص ـ ٣٥١ ـ ٥٤٣ .

وقد اشار لجهود الاستاذ البستاني الاستاذ المحقق المشهور ابراهيم الابياري في مقدمته لطبعة المقتضب من تحفة القادم ـ لابن الابار ٥٥٩ هـ ـ ٦٥٨ هـ عام ١٩٥٧ . في منشورات « قسم التراث الثقافي »بمصر.

ان هذه الاثار احياها الاستاذ الباحث الفريدالبستاني تجعل منه في مقدمة الباحثين الرائدين في حقل الاندلسيات ولم تقتصر تحقيقاته في احياء المخطوط وحده . بل كان يتحرى الصدق في النقل ، والامانة في القول ، والرجاحة في الراي ، والتنقيب عن الغامض . والكشف عن المخفي بلغة سهلة بينة ، واضحة الصورة ، جميلة المعالم . وكان همه السير وراء الغاية العلمية في جميع مظانها ، وفي مختلف لغاتها.

ومن طالع كتاب «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» او رحلة « احمد بن المهدي الغزال الاندلسي المتوفى سنة ١١٩١ هـ كاتب اسرار مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب وسفيره الى كارلص الثالث ملك اسبانيا عام ١١٧٩ ١١٨٠هـ. ١٧٦٦ م ـ ١٧٦٧م. لوقف وقفة الاحترام وتطلع بنظرة الاعجاب والتقدير لجهود الراحل الفريد البستاني.

كان الفريد ـ همزة وصل جيدة ـ بين المغرب والمشرق العربي . يوم ان كان الاستعمار والحماية تظللان تلك الديار المغربية العربية . وفي كل الحالات والظروف السياسية يومئذ لم ينس عروبته ، ووطنيته ولغته ، واخوته ابناء الضاد .

كان رئيسا مسؤولا للقسم العربي في معهد الجنرال فرنكو للابحاث والدراسات العربية . ذلك المعهد الذي كان مع زميله معهد مولاي الحسن من افضل المعاهد المنتجة والنشطة في اخراج واحياء الاثار الرائعة من تراث الاندلس والمغرب. تلك البدائع التي تزخر بها وتزدحم الخزائن العلمية والجامعات في اسبانيا ، والبيوت والمساجد والمعابد في المغرب بشماله وجباله ، وفي اقاصي جنوبه ورماله . وما كان مخفيا مستورا عن العيون والانظار .

واذا كان لنا من عتاب الان على اخواننا في الشمال الافريقي العربي ، فهو في تأخرهم عن اظهار كنوز الاباء والاجداد المخفية في خزائنهم الخاصة والعامة . وخاصة ما يتعلق منها بتاريخهم وباختهم الاندلس الحبيبة .

واذا وجد لهم من مبررات في الماضي ، فانهم الان وقد تحرروا واستقلوا ، ان ينشطوا في بعث ما خفي عن انظارنا نحن المشارقة وفي تيسير الكتاب المغربي وتوزيعه ليتلقى ثمراته ، وينهل من معلوماته جمهور الباحثين المتعطشين لكل جديد من علم المغاربة والاندلسيين .

كما ان المغرب الاقصى عليه ، ان لا ينسى وجمهور مثقفيه وطلابه مساعي المرحوم الفريد البستاني . وعليه ان يتذكر ماله من حقوقه فيجمع شمل مكتبته ، ويحفظ لنا أوراق مخطوطاته ، ويقوم بنشرها واحيائها . ويذكره في ابحاثه ودراساته ويعيد له ذكرى وفاته . اذ انه احب المغرب وعاش فيه اكثر شبابه ومات في احضانه .

فهل ترى ان الاخوان المغاربة الكرام يسمعون هذا النداء؟ ويلبون هذه الدعوة؟ وعهدي بهم اوفياء لمن وفى لهم ، واحبة لمن احبهم..

كان لالفريد البستاني تحقيقات قيمة باسلوب علمي يغلب عليه جانب التثبت والبساطة والتواضع . مع محبته للقديم النافع ، وتقدير للجديد المفيد .

لقد عاصر حركة ثقافية مندفعة للعروبة والعربية ، في بداية وجوده هناك ـ في مطلع الحرب العالمية الثانية. كما ساهم في النشاط الاثاري لحفريات ثموده وادمير وموريتانيا .

وسعى لقيام مهرجان عيد الكتاب المغربي العربي الذي يقام في الثالث والعشرين من ابريل كل عام . حيث تعرض فيه الدراسات المطبوعة ، والمخطوطة النفيسة والفنون الجميلة . كانها تعيد ذكرى مواسم الادب في بغداد ـ وقرطبة ـ وعكاظ الجاهلية ـ وهي معقودة السوق ..

وقد اشاد الفريد البستاني بشخصية الامير مولاي الحسن بن المهدي وجعل منه نصير العلم والعلماء ورافع لواء الثقافة في القطر المغربي يومذاك ذلك الامير الذي احيا كتبا مهمة موضوعة ومترجمة لها صلة بتاريخ الاندلس والمغرب والحضارة العربية . مع فتحه للبيت المغربي في القاهرة لدراسة ابناء المغرب وتثقيفهم واتصالهم بأهل المشرق من اخوانهم ابناء العروبة .

ومن منشورات البيت المغربي في القاهرة والكتب التي أحيا وجودها مجموعة ذات اثر ادبي وعلمي وحضاري ننهل منه اليوم . ومن هذه الروائع :

١ ـ ازهار الرياض للمقري ـ بتحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري وجماعته في ثلاثة اجزاء.

٢ ـ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين

ليوسف اشباخ ـ وترجمة الاستاذ محمدعبدالله عنان في مجلدين.

٣ ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متنر ـ وترجمة الاستاذ محمد عبد الهادي ابو ريده.

٤ ـ معجم ما استعجم ـ لابي عبيد البكري الاندلسي تحقيق الاستاذ مصطفى السقا في اربعة مجلدات.

٥ ـ النهضة الاوروبية ـ تأليف سدني دارك ـ وترجمة الاستاذ محمد بدران في جزء واحد .

من احاديثه الادبية : نراه وقد كتب ثم عطف الى الجنرال فرنكو وخاطبه مشيدا بجهوده في ربط العلاقات العربية ـ الاسبانية وفي تنشيط حركة الثقافة الاندلسية ـ ونشر مخطوطاتها فقال مخاطبا له : « جئت انت الان بعد فترة من زمن خيم عليه الظلام ، وعبثت به حوادث الايام ـ تحي تلك الروابط على اسس متينة الدعائم ، مقرونة بالاخلاص والعطف وحسن التفاهم . »

وخاطبه كذلك بقوله : « وتسعى بحزم وعزم لاعادة تلك النهضة الثقافية المشتركة التي عاشت عليها اوروبا . وتغذت منها طيلة سبعة قرون ، وتعمل بدون ملل لاحياء مدنية عربية اسبانية سامية ارضعت مدنيات الامم طرا »

ويتابع حديثه فيقول : « وقد ظهر لنا من فخامتكم برهان ذلك يوم كنا بحضرتكم والفيلسوف العربي الكبير امين الريحاني فكنت عندما تذكر المدنية العربية بالاندلس كنا نقرأ على جبينك آيات الحماسة والفخر ، وعندما تتكلم عن اثار العلماء الاعلام وعن مخطوطات الاسكوريال العربية ومكتبة مدريد الاهلية وغيرها تظهر على محياك دلائل الاعجاب والاكبار لهذه الذخائر الادبية وبالنبوغ العربي .

وقد صارحتنا بانك ستسعى في نشر هذه الذخائر الثمينة.

وتكلم عن معهد الجنرال فرنكو واهدافه بقوله : «وما القصد من وراء ذلك الا نشر ثقافة عالية مشتركة ، واحياء تراث ثمين وادب فياض ومدنية سامية ، ارضعت مدنيات الامم طرا ، ثم وهنت لما اصابها من هجمات الاعاجم وغارات الزمن »».

ثم حدثنا بقوله عن نشاط المعهد الفكري في مجال الطبع والتحقيق والتنقيب بقوله : « فثروتنا الادبية وابحاثنا العلمية والجيولوجية ، في نمو متواصل بمانكتشفه من آثار القوم الغابرين ونعثر عليه من مولدات قرائح الشعراء ومنتوجات ادمغة الادباء والكتاب ، من اعلام الاندلس والمغرب تمثل نواح مجيدة من الادب العربي في هذين الصعقين في مختلف العصور ، كانت في رؤيا النسيان مكتلة ، وفي خصاف خزائن المكاتب مهملة . فجاء معهد الجنرال فرنكو يستخرج تلك الكنوز من دفائنها فيعرضها ويبين غثها من سمينها ويستخرج صحيحها من منحولها ويسلط مبضع التنقيح على يد النساخ فيما نسخته وشوهته ، وعلى غارات الزمن بما طمسته ، ويحول جولاته ثم يأتي بتلك الاثار سليمة الشوائب فيعد العدة للنشر والابراز .

وكان الفريد البستاني من دعاة التجديد النافع حيث قال : « وان كنت من دعاة التجديد ، فاني لا ابشر بتجديد لا يتفق وروح المحيط وعقلية البلاد ، خال من المؤهلات والتمهيدات الكافية النهضة . كما اني لا اقول بالتقليد الاعمى والجمود والمحافظة المنحطة وعلى كل حال اني اقدر المحافظين ولا ابخس حقهم فانهم قد حفظوا لنا ذخائر تلك اللغة وحموها من عاريات الزمن فمن نورهم نقتبس اليوم ومن معارفهم نستمد ، فنصقلها بمرآة العصر ، ونوسمها بطابع المحيط ، فنحولها الى مجرى الحياة العصرية ونسير جنبا الى جنب على ما يقتضيه العلم الحديث وروح العصر»

ثم اشاد بالمغرب واهله فقال: « ففي المغرب من العلماء ، والفقهاء والمحدثين والمجددين ما يفخر بهم ويقل نظيرهم . »

وتحدث عن حكمة الشيوخ وهمة الشباب فقال : « فاعتدال موزون من شبيبتنا وتساهل سمح من شيوخنا نلتقي جميعا على مدخل الجادة القويمة المؤدية الى باب النهضة . فبحكمة الشيوخ وهمة الشباب تبنى دعائم صروح الوطن . »

طريقته في تحقيق التراث : اعطانا الاستاذ المحقق المرحوم الفريد البستاني حصيلة لتجربته ، في تحقيق التراث ، ومنحنا خبرته ، في هذا الميدان الصعب ـ ومن قرا رأيه في ذلك اعتقد جازما بانه خبير بدراسة المخطوطات ومهتم بابحاثها وطرق تحقيقها ، قال في مقدمة « نتيجة الاجتهاد » قوله :

« قد سلكنا في نشر هذا المخطوط طريق النقد والبحث والمقارنة والاستقراء حسبما يقتضيه النشر العلمي الحديث. فلم نترك نصا رسميا كتب حول هذا الموضوع الا وطالعناه. ولم نغادر مصدرا يعتمد عليه الا وتفهمناه . وكذلك راجعنا ما دون من الوثائق ... وقد درسنا الكتاب واستخرجنا نصوصه من عدة مخطوطات عثرنا عليها . فقد نقحنا تلك المخطوطة وصححنا ما مسخه النساخ واصلحنا ما شوهته غزوات الارضة والعثة وضبطنا مقدمة المؤلف بالشكل الكامل وبقية الكتاب بشكل متفاوت .وذلك تتميما للفائدة المنشودة ، ومظهرا جميلا لحلية الكتاب وقد ذيلنا هذه الطبعة بجداول وفهارس جغرافية وتاريخية ووضعنا ما يقابلها باللغة الاسبانية القشيالية وشرحنا الكلمات العويصة والدخيلة ، والالفاظ والمسميات الاعجمية والتعابير الوضعية المصطلح عليها بالمغرب مع شروح وتعليقات كافية وافية .. وقد زينا الكتاب بالرسوم والصور والخرائط والحقنا متنها ترجمة لحياة مولاي محمد

هواء الحقيقة

انا لا احبك انت اهواك الحقيقة في خيالي
ان الحقيقة انت اروع منك في دنيا الجمال
قد علمتني ان اموت ، اذا هويت ، فلا ابالي
وعرفت منها السهد في قلق المعذب في الليالي
وسبحت في اعماقها فلمست لؤلؤة اللآلي
وشممت فيها كل عطر ، غير وفر في الظلال
وطعمت لذة شاعر ولهان في حسن مثال
فعجبت كيف يعيش خال ، كيف يمضي غير خال

اخرجتني من جنتي فرضيت مخدوعا مآلي
وطربت ، حين ضحكت ، مني في ضلالي ، في دلال
لولاك لم اعرف زهور الشر في ظلم الضلال
لولاك لم افرح بذنب جئته لسواد حالي
لولاك لم اندم على زمن ، من اللذات ، خال
لولاك لم ادر البكاء ولم يثر عمي وخالي
لا لا ولا معنى التوجع في البعاد وفي الوصال
انا لا احبك ، بل اغار عليك من روحي ومالي

لا ترجعي ، بهواي فيك ، ولم يعد فيك انشغالي
واذا سألتك فاجهلي فيما الاقيه سؤالي
وتذكري اني غرقت فرحت في زهو اختيال
انا لن اعود اليك بعد اليوم اني اليوم غال
علمتني ان لا اسامح من تفنن في وبالي
علمتني ان لا اغار عليك من مقل الرجال

واليوم عدت الى فاتنة كأيامي الخوالي
فنسيت كل تجاربي وصرخت يا حلمي تعالي

تعز ـ عصيفرة ـ اليمن — علي محمد لقمان

بن عبد الله ونبذة عن احوال المغرب ومظاهر الثقافة العربية في عهده ».

ولم ينس المحقق البستاني الاشادة بامانة علمية، بمن ساعدوه ، امثال الاساتذة : الشيخ محمد المريروالحاج احمد الرهوني والمستشرق الاسباني كارلوس كيروس وبعض موظفي مكتبة مدريد الاهلية .

وهو انسان مؤمن بالروح ومقدر للشرائع والدين. قال في مقدمته لكتاب « الابحاث السامية في المحاكم الاسلامية » للشيخ محمد المرير : « غير انه مهما اشتدت تلك العواصف ، ومهما قصفت رعود الباطل ، ودوت اصوات مدافع الظلم فلا تؤثر في مملكة الروح ، ولن تقوى على معالم الشرائع والدين. فان للباطل جولة قصيرة ثم يضمحل ، وكلمة الله هي العليا ».

لا ندري ونحن في نهاية هذه الدراسة ، هل ترك لنا الاستاذ الفريد البستاني رحلة مخطوطة صور لنا فيها انطباعاته عن الاندلس واثارها ، ومخطوطاتها وتراثها. وهو الخبير المساهم في احياء كل ما له صلة بالمغرب والاندلس الخالدة ؟.

نرجو ان يكشف لنا اخواننا المغاربة واسرته الكريمة، عن وجه ما خلف من آثار مؤلفة ومترجمة . فالتاريخ سيسألهم يوما عن ذلك .

وما اقسى ما يحكم به التاريخ على المقصرين او المتناسين او المهملين ، لاثار النابغين والعاملين لخدمة اوطانهم وامتهم واخوتهم وامجاد تاريخهم .

بغداد ـ كلية الاداب — محسن جمال الدين

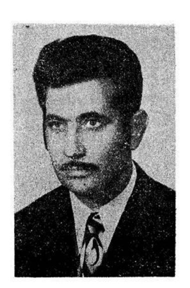
رحلة في الصحراء

•

محمود محمد كلزي

•

دمشـــق



كانني من الف عام ها هنا
اصارع السـام
كانني من الف عام.. ألعن الرياح والرمال
اقاتل الذباب
قافلتي ضائعة .. تائهة .. تلاحق السراب
وترسم الطريق للشطآن والانهار
في هــذه القفار
من وهمها الذي تسوقه الرياح
من العــدم
كانني فراشة تطير بحثا عن رحيــق
في يابس الازهار
وانت يــا بعيده
تراقبين الافــق بانتظار
مصلوبة العينين .. في الغروب والشروق
وتحلمين .. في الظلام والنهار
بغابة خضراء .. من ظلال
احس يا رفيقتي البعيده
يا حلوة العينين .. يا جميلة الجبين
بحاجة لغابـة سوداء
لروضة ترف في اهدابها الافياء
لرحلة سعيــدة
في عالم لا يعرف الحنين
يداي في يديك .. يا جميلة العيون
يا حلوة الجبــين

الشمس في الصباح
الشمس في المســاء
من عينها الرمداء تنفث الجحيم
والارض ظمأى .. والرمال والرياح
تحلم .. بالغيوم
كخيمة ســوداء
انا هنا .. في هذه الصحراء
ملقى هنا .. كجثة تأكلها الغربان
يمقتها البعير والرعاة والخرفان
انا هنـا .. كرملة ظمأى الى حنان
كلعنة ســوداء
يقتلني الجفاف
ابحث عن عينين حلوتـين
عن خصلة من شعر حلوتي البعيدة
لاستظل في رموشها السمراء

في ليل عينيها البهيم
انا هنا .. تغوص اقدامي بوعثاء الطريق
اعيش ايامي بلا رفيق
مع الرمال والرياح .. والحنين والضياع
مفتشا عن واحة خضراء
عن نبعة مـــن مـــاء
وتلهث الدروب ظماى
تحت وطأة الصراع
وتستدر رحمة السماء .. علها تجود
بقطرة من الدموع .. والحنان
لكنها مهملة كهذه الاحجار
تلك التي القت بها الاقدار
مثلي انـــا
كخيمة تصارع الشموس .. والغبار

بخيلة صحراؤنا .. لا تعرف الندى
لا تعرف الامطار والظلال
شحيحة رمالها .. سماؤها لا تعرف الغيوم
من اي شمس تجلد الاجسام باللهيب
من اي درب لا يرى الربيع
من اين ؟.. لا ادري
عرفتم كرم الغيوم في الشتاء
حين تبل حرقة الرمال والدروب
من اين ؟ يا من كحلت عيونكم اشعة الجفاف
يا من ولدتم .. فوق هذه الرمال
فغسلت اجسامكم بها .. ام حنون
خيامكم ترتيلة .. ترتاح للغريب
صدورها جوانح وسيعة .. وثيرة الوساد
والقهوة المرة .. في الدلاء
على اثافيها .. نداء
تحن كل فترة الى غريب
يا مرحبا بالضيف .. صبوا القهوة المرة
هاتوا الخبز والحليب
للقادم الغريب
يا مرحبا .. لا تعرف الكلال
من الصبايا السمر .. والرجال
ما اروع الصبية السمراء
عيونها .. يا خيبة سوداء في الصحراء
يرتاح فيها المتعب الغريب
ووجهها .. قد لوحته الشمس بالبراءة
وفوق ثغرها ابتهال
وغنوة .. والف مرحبا .. هلا بالضيف

يا اخا العرب
ويسدل المســاء
على عيوني .. خيمة سوداء
لان قلبي لا يحب القهوة السمراء
بدون عيني حلوتي البعيده
ترحبان بي .. تصبان اللآلي
في الفناجين السعيدة

ما اطول الطريق !...
ما اسام الساعات .. تمشي كالكسيح
كسلحفاة .. هدها طول السفر
ما اتعس الانسان .. في رحلته بلا رفيق
احس بالدقائق التافهة القدر
تطـول كالدهور
سيارتي .. تدب كالطفل الصغير
عيناي تزحفان في الطريق
على الصخور السود والاسفلت
وراسي الغريق .. كالدوامة الحمقاء
يغالب النعاس.. والضجر
ما اطول الطريق ؟..
كالافعوان يلتوي .. كالحية الرقطاء
ووحدتي قاتلة .. ورحلتي سام
فلا احس بالمسافرين
مهومين .. يلعنـون السائق البليد
تسحقني الشمس التي تطل
من نافذتي الصغيره
فالمح الصوى تسير
والافق والاشجـــار
والارض بـي تميـد
انا وحيد .. يا رفيقة الاسفار
بلا عيـون حلوة .. اهدابها اشعة سوداء
ورحلتي فيها بلا قرار
كزورق تدفعه الامواج والانواء
يتيه في عرض البحار ..
يا ليتني .. في جانح الخطاف
ريشة تسابق الرياح
لاحمل الرسالة التي تطل من عيوني
تسبقني اليك .. كي تقبل العيون
والشعر والجبين ..
وترتمي .. في حضنك الحنون
نعيش في العناق ..

دمشق
محمود محمد كلزي



الدكتور زكي المحاسني

زكي المحاسني كما عرفته..

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

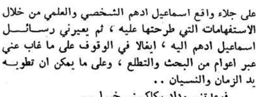
• • •

في مؤتمر الادباء العرب الخامس، وقد انعقد ببغداد في شهر شباط من عام ١٩٦٥، تعرفت فيمن تعرفت، الى الاديبة المعروفة وداد سكاكيني، زوجة الدكتور زكي المحاسني..

اتصل بيننا اكثر من لقاء وحوار اخذ بتلابيب الحياة والفكر، واحسب انني اهديتها نسخة من كتابي «من ادب التركمان» ذكرى تعارف وتآلف. ومن قبل كنت قرات انها تعرف ولو على البعد المستعرب التركي اسماعيل احمد ادهم، حتى نشرت عنه مقالا عنوانه «دمعتي على ادهم»(١) بعد انتحاره غرقا بالاسكندرية في اليوم الثالث والعشرين من تموز عام ١٩٤٠..

في الوقت الذي كانت علاقة زوجها المحاسني باسماعيل ادهم وطيدة.. وثيقة حيث راسله مراسلة تجلت فيها آية التقدير المشترك ونزعة تبادل الاراء ووجهات النظر، في المشكلات الادبية والفنية المثارة يومئذ، حتى تكونت لديه مجموعة لا يستهان بها من رسائل اسماعيل ادهم..

كان مناسبا، وانا معني منذ طويل بقصة اسماعيل ادهم من حيث تحليل شخصيته الغامضة وتتبع خطواته العقلية والوجدانية، وتعقيب اثاره المطبوعة التي وضعها والمخطوطة التي تركها من بعده في ضوء ما ادركت ونقبت. كان مناسبا ان استغل هذه الفرصة المواتية، فاسال وداد سكاكيني التوسط لدى زوجها المحاسني، لعله ان يعينني



على جلاء واقع اسماعيل ادهم الشخصي والعلمي من خلال الاستفهامات التي طرحتها عليه، ثم يعيرني رسائل اسماعيل ادهم اليه، ايفالا في الوقوف على ما غاب عني عبر اعوام من البحث والتطلع، وعلى ما يمكن ان تطويه يد الزمان والنسيان..

فوعدتني وداد سكاكيني خيرا..

لكن لا المحاسني رد علي، ولا وداد سكاكيني كتبت الي بهذا الشأن بعد عودتها الى دمشق!! واغرقت في صمت، كان كالرماد تحته نار كاوية.. وظللت حائرا تتصرم بي الايام. ذلك ان رسائل اسماعيل ادهم التي لم اطلع على قسم منها، مهمة بالنسبة الى بحثي المراد اعداده واخراجه الى الوجود.

ثم صادف ان انهى الي ببغداد، دعي من ادعياء (الاخوة) ان له صلة متينة بالمحاسني، وانه مستعد لان يكتب اليه بما اروم، تقديرا لاهتماماتي. فشكرته اجمل الشكر واعمقه. حتى اذا عدت اساله بعد مرور وقت ليس بقليل، واكرر السؤال منه بين حين وحين، زعم: ان المحاسني لم يجب عنه لتوه.. من هنا اخذت اتحاشاه موقنا انه نهاز.. نفعي في مزرعة (الاخوة) ناهيك بمضمار (الادب). ولله في خلقه شؤون.

ذات يوم، اهاب بي، بغتة، صوت يتسلق اعماقي ويريد ان يهزني هزا:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك

فهرعت اكتب الى المحاسني، وقد جاءني عنوانه من تلميذه وصديقي الدكتور شكري فيصل، هذا الذي كان لي شرف معرفته والجلوس اليه في مؤتمر الادباء العرب الخامس ايضا.

ان هي الا ايام حتى يستقر بين يدي جواب المحاسني المؤرخ بالثلاثين من اذار ١٩٦٧، وبه يقول «ايها العزيز، تلقيت رسالتك منذ اسبوع. وعز علي ان لا اكون قد قمت بالرد على مطلبك بتزويدك بمصادر عن صديقي اسماعيل احمد ادهم عليه رحمة الله. وكأني اذكر ان ودادا كلمتني بانها لقيتك في مؤتمر الادباء».

ترسخت بيننا عرى الاخاء..

اذ تمثل في ما جعل يضطرب ويتردد عبر رسائلنا المتبادلة على مدى اعوام خمسة... وكان ينقطع عني على غير توقع شهورا او اياما انقطاعا، لم اكن ارتاح اليه، ولا اجد له تسويغا، ولطالما استفللت ذلك فعاتبته بشيء من الحدة والشدة..

بيد ان المحاسني كان يعتذر او يحاول الاعتذار عن تقصيره او قصوره، لمشاغله ومكابداته.. لتنقلاته وتطلعاته هنا وهناك.. ها هو ذا يقول في رسالته المؤرخة ب ٨ - ١١ - ١٩٦٧: «لا تعول على الرسائل العاجلة ايها الصديق الحنون. فانها ليست على الدوام عنوان الشوق والتمثل الكريم، فاني على الدوام، اتمثلك واغنى

بخيالك .. » . كذلك يقول في رسالته المؤرخة بـ ٥ ـ ٣ ـ ١٩٦٨ : « وكم بت مسرورا بتلاوتها ـ الضمير عائد الى رسالتي اليه ـ مستغربا ان لا تصل اليك رسالاتي السابقة . وما كان من عهدي التأخر بالمراسلات وبخاصة للاصدقاء الاكرمين امثالك .. » . كما انه يقول في رسالته المؤرخة بـ ٢٣ ـ ٨ ـ ١٩٧٠ : لك الحق ان تضج وتحتار لانقطاع رسائلي عنك بعد تواليها ولو عرفت عذري لكنت عذيري .. » .

وفي ليلة الثالث من شباط من عام ١٩٦٨ ، سافرت في رحلة ادبية الى القاهرة .. عندما هبطت طائرتنا النفاثة بمطار دمشق للتزود بالوقود ، تحينت الفرصة لاهتف الى صديقين من اصدقائي الادباء ..

كان الدكتور شكري فيصل غائبا عن منزله ، فتركت له عبر الاسلاك ، بطاقة محبة وتحية .. بينما جاءني المحاسني نفسه على الهاتف ، وهو يبدي دهشته لان اكون بدمشق ولم يسمع بقدومي بعد .

قلت له : اطمئن .. فانا هنا منذ ربع ساعة

قال : من اين تتكلم ؟

قلت : من المطار ، في طريقي الى القاهرة ..

قال : طبيعي انك ملاق اخوانا لنا هناك

قلت : بالضرورة ،وفي طليعتهم الدكتور طه حسين .

قال : ارجو ان تبلغه آيات سلامي

قلت : وهو كذلك ..

بعد عودتي من القاهرة ، واذا بي اتلقى من المحاسني رسالة جاء بها : « طاب لي ان اجدك سررت بزورتك لمصر وحفاوة ادبائها بك وانك اجتمعت الى استاذنا العظيم الدكتور طه حسين ، فالجلسة اليه غنية الروح والادب الخالد .. » .

وتلاحقت الايام .. ومن ثم ادركتني منه نسخة من كتابه « شعر الحرب في ادب العرب » ، ولكن بعد مدة من الارسال به .. بعد رقوده في احد الفنادق ـ وقد ارسل به الي عن طريقه ـ ، من غير ان يكلف القائمون بامره ـ لغرض في قلوبهم ـ انفسهم ، اعلامي ذلك .. على ان المحاسني وشح كتابه بمقطوعة شعرية ، هذا نصها :

فديت (وحيد الدين) بالقلب والعين	وجئت (بهاء الدين) وفيته ديني
عجبت له ، دينان فيه بواحد	وزان بهاه فيهما سائغ الزين
احن الى بغداد من اجل وجهه	اديب بريء من رياء ومن شين
فيا ليت لي من صفو دجلة حسوة	اروي بها روحي واشفى من البين
هوايان لي : شامي وبغداد مثلما	(لرابعة) حبان جلا عن الاين (٢)

ليس من طبعي ان اسكن الى عاطفة انسانية جياشة مكتفيا بحلاوتها وتأثيرها في ذاتي دون ان اتحرك امامها متخذا منها موقفا لما يفرضه الواقع . لقد كان جديرا بي ان اجيب عنها ـ في الاقل ـ نثرا . لانني لست شاعرا ، لا بالاصالة ولا بالادعاء ، كما يصنع المتفيهقون ، وهم كثر ، وان كانت بداياتي للادب اتسمت بنظم طفولي .. كتبت

اقول : « سيدي باقعة الفكر والشعر الدكتور زكي المحاسني .. وهل تحيتك الشعرية الا كتهتان وابل جادت به الطبيعة من غير انتظار . على ارض عطشى تسربلت بالجفاف . فقد ايقظت وجداني بمهاز البقاء وغذيت روحي بزاد الشمائل ، مطوقا عنقي بصنيع لا سبيل الى نسيانه .. انى لي يا اخي ان اقابلك بالمثل .. بل انى لي ان اسوق اليك نثرا اجمل من الشعر . هيهات ! انما انت اهل لكل شكر وذكر .. تجاوب ، وتعاطف . واشهد انك كنت وما برحت مسماحا ممراحا .. مخلصا مؤنسا .. ذكيا رضيا .. رفع الله شأنك وادام مجدك واخصب عمرك وجعلك على تقادم الايام والاعوام نبراسا مضيئا لا يخبو ، لاصالة الادب وامثولة الحياة ، وفخرا لاحبائك واوليائك . مع وفائي وولائي .. » (٣) .

اضافة الى ذلك كله فانا حين اعلمت المحاسني وصول كتابه « شعر الحرب في ادب العرب » الي متأخرا ، بعد هذه المدة الطويلة ، تناهى الي جوابه المؤرخ بـ ٢٩ ـ ١٢ ـ ١٩٦٩ ، وقد استرسل فيه على سجيته : « احمد الله ان وصل الى يدك الكريمة كتابي (شعر الحرب في ادب العرب) بعد لأي من السفر ، وتراخ من الاداء وهو وان طال مكثه في ذلك الفندق يستقبل الضيفان ويودع المغادرين فانه سلم من العطب وفوات الاوان . ولقد ارسلت يوما من الشام علبة حلواء لصديق لي بعيد ، فوصلت اليه قديدة جافة كادت اسنانه تتهادى فوقه ... »

وفي اواخر عام ١٩٩٦ صدر كتابي «في الادب والحياة» .. واستقرت نسخة منه بين يدي المحاسني ، فاذا هو يسر به ، وبالكلمة البليغة التي حلى بها صديقي الاثير الدكتور صفاء خلوصي غلاف الكتاب ، ثم يقرر الاحتفاء به بمقال مستفيض . ومن ما ذكر فيه : «ويعرف قرائي وقارئاتي حيثما كتبت انني اذوق طعام الكتب ولا آتي على اكلها وانما ادعوهم الى مآدبها الفنية ليمعنوا فيها غذاء الروح ومشرب النفس التي لا تروي . فالى مأدبة الاستاذ السخي وحيد الدين بهاء الدين التي تحمل المن والسلوى في الادب والحياة » (٤).

وفي هذه الفترة اتفق ان صدرت الطبعة الثانية من كتاب « ابو نواس » للمحاسني ، وترامت الي نسخة منه متوجة بمقطوعة شعرية وهي :

(وحيد الدين) يا ابهى وحيد	وزين للبيان وللوجود
(خلوصي) روى ادبي وشعري	بجامعة شفت وتري وعودي
. . . .	. . . .
وقل لابن المحاسن انت وجدي	وسحر هواي في حسناء رود

ما كان اقتداري ان ارد عليه شاكرا له تحفته الادبية ، الا برسالة طويتها على رايي الصريح في كتاب هو باكورة صدرت منذ اكثر من ثلاثين سنة ، واعتزازي بمواهبه النقدية والفنية التي بدت عليه في بواكير عهده بالادب والفكر ...

تولت مجلة « الضاد » الحلبية في اواخر عام ١٩٧٠ طبع كتابي « شخصيات من الادب المعاصر » ثم توزيعه على مشاركيها واهدائه الى مريديها من الادباء والمفكرين والشعراء في العالم العربي والمهاجر .. وكانت نسخة من الكتاب قد بلغت المحاسني ، وقراته ابنته الكبرى (ذكاء) ، وهي التي قالت لابيها في ما بعد :

ــ بابا ... لم لم يذكرك هذا الاستاذ بكتابه مع كثرة ما بينك وبينه من صلة الادب والفكر ؟

اجابها ابوها :

ــ هذا كتاب سابق لصداقتنا ...

ذلك ما نقله المحاسني بأمانة الي في احدى رسائله..

انما خجلت ان لا اوفي صديقي المحاسني بعض حقه، وهو الحري بان تدرس اثاره وتقوم ، وتعدد جهوده وتذكر ... ومن حسن الحظ ان الظروف ساعفتني في ما بعد على نشر فصل ادبي عنه في مجلة « الاديب » الغراء (٥) طرب له المحاسني بكل عقله وقلبه ، على نحو غير منتظر مما حداه على ان يسوق الي رسالة ادبية في غاية الجمال والقوة والطرافة اذ قال : « فوزي بك منحة اتيحت لي في درب حظي وقد اخذت نفسي على الدوام باداء الشكر جزيلا لكل من يكتب ولو سطرا واحدا يسجل فيه من اعمالي الادبية ما يعينني على متابعة السير في صحراء الادب التي شحت فيها المياه . واقسم انك منحة الهيئة للادب المعاصر تعدل بمنحة كبرى يجود بها الزمن على اطراف العصور ..» (٦)

اكثر من هذا بدا لي ان اعجاب المحاسني المتناهي بما كتبت عنه واطمئنانه الى ما اعتدت ان اكتب ، دعاه لان يقول بالحرف الواحد في ختام رسالته تلك «وكم اطمع ان اجدك في مقال ثان متكلما على شعري ليتم فضلك محبوكا من جانبيه . ويقول ايضا : « وانت ايها الصديق الاحب والكاتب العبقري الفذ اطعمتني ولم تشبعني .. فانا انتظر قصعتك الثانية الملأى بما طاب من الشعر والسحر .»

لقد قطعت على المحاسني وعدا بذاك وعهدا .. ولكن القوابل من الايام عاكستني ، بل باعدت بيني وبين ما كنت اريد ، مرددا قول الشاعر العظيم محمود ابو الوفا:

اريد وما عسى تجدي اريد   على من ليس يملك ما يريد

كان المحاسني يطرب لاسماء اولادي طربا شديدا، وقد وقف عليها في كلمات الاهداء اليهم في كتبي المطبوعة، وينشرح لها صدره الى حد نظم معه فيهم مقطوعة مؤثرة.. معطرة ، ما برحت ارددهافي دخيلة نفسي واتنسم عبيرها. قال :

ابا (هيام) وقد جادت بامجاد   (عصام) ملء فؤاد عزة الضاد
زينت في الفلك الدوار طلعته   والدهر يزجي (بايام) لاسعاد
اما الهفوف الذي من نحو جئتكم   على الضفاف فعطر الدار والنادي
(انسامه) انعشت قلبا وخاطرة   لدى (الوحيد بهاء) المورد الهادي
وتلك امهمو زين الحسان بدت ،   ام النجائب في غيب وفي باد

يا ليت المحاسني قد توقف عند هذا الشعور الرائع الدافق ، وانما جعل يترسل على فطرته في رسائله الي. يقول مرة : « نور عيني ونبعة خواطري .. لم اطرب لشيء طربي لاسماء اولادك النجب ، اضفي عليهم وعليك وعلى والدتهم المنجبة المعطاء بالصحة والسعادة والاقبال.» ويقول اخرى : «كيف حالك وكيف اولادك وقد وجدتهم كأوتار العود يؤدون نغما واحدا ، لكن كل وتر بنغم خاص . حفظهم الله والمنجبة التي اعطتك اياهم .. » ثم يقول ثالثة : «سلمك المولى وقرينتك المثالية واولادك الذين اشبههم باوتار عودكما الحنان الذي يشبه عود (اورفى) في اساطير الاغريق ..»

في الاعوام الاخيرة اصطلحت بعض الامراض على المحاسني ... اخذ يشكو لي عبر رسائله التهابا حادا في مفاصل ركبتيه بسبب من روماتيزم قديمة ، وضعفا واضحا في باصرتيه ، لظهور نسبة ضئيلة من السكر في دمه ...

اخر رسالة تسلمتها منه وكتبها بخط يده ، كانت قبل وفاته بشهرين كاملين ، وبها يطرق كل حديث،ويعرج على ايّ شيء ، الا المرض ، وهجمته المباغتة له في مابعد..

ولكن بعد شهر وردتني رسالة موجزة .. مؤرخة بـ ٢٥ـ٢ـ١٩٧٢ ، وممضاة من قبل ابنته الصغرى (سماء)، تقول بها : «الوالد يرسل بتحياته وتمنياته الطيبة لكم وهو لم يتمكن من الكتابة لانه مريض منذ بضعة ايام .. فقد ألمت به روماتيزم شديدة اثرت على ظهره..»

وفي ١٧ـ٣ـ١٩٧٢ ، استطاع ان يملي رسالة على نسيبه : زوج ابنته (سماء) وهو راقد على ظهره ..مريض مرض الموت ، وبها يقول وما اوجع ما يقول : «اكتب اليك وانا مضطجع على ظهري منذ شهر وقد عج منزلي امس بالات ضخام اشعاعية لانني كان من روابع المستحيلات قدرتي على الانتقال . وظهر بالاشعة انني مصاب بانهيار قرص في العمود الفقري فتآكل لمداواتي السابقة ضد الروماتيزما بالكورتزن وقد رحت اذكر قول الجاحظ: (ولي شق مائل اذا قرض بالمقراض لم اشعر . وشق منقرض لو مر به الذباب ، لاطار عقلي) فاجهشت بكاء على ابي عثمان واشفقت على نفسي بانني لم اصل الى هذه الدرجة لكني اذا حركت بعنف بلغ صراخي ابواب الجيران»

هذه الرسالة بالذات زرعت اليأس في جوارحي من

---

(١) مجلة (الحديث) الحلبية ـ العدد الخاص باسماعيل ادهم ١٤٠ .

(٢) اشارة الى بيت رابعة العدوية :

احبك حبين : حب الهوى   وحبا لانك اهل لذاك

(٣) مجلة (الاديب) اللبنانية العدد نيسان ١٩٧٠ .

(٤) مجلة (الاديب) اللبنانية تشرين الثاني ١٩٧٠.

(٥) مجلة (الاديب) اللبنانية ايلول ١٩٧١ .

(٦) مجلة (الاديب) اللبنانية تشرين الاول ١٩٧١ .

رسالة اليه

صفاء الحيدري

●

بغداد

سيدق بابي
مهما تلكا او تأنى
مهما ترفق بي ومنا
فليات ، يكتب فوق شباكي
على الجدران ما يهوى ويمضي
فليات يرسم ما يشاء على دجى ليلي الممض
قلبي تشيا ، صار اشياء ولاءات
صراعا بين حب بين بغض بين رفض
والبعض مني قد تمزق صار لا يصفي ابعضي
ما عادت الارض التي امشي عليها اليوم ارضي
فلياتني ، فانا اراه من باب لباب
في كل موضع خطوة ، ومدى ذراع من كتابي
سيظل كالاعلاق ملتصقا على قلبي
على جسدي
ثيابي
سيجيء يسبح في الهواء ، مع الغبار ، على التراب
سيكون ... المعلق فوق رأسي ، كالعقاب
سيكون خلفي ، تحت اقدامي ، امامي
سيكون مرسوما على قسمات وجهي
في اكتئابي ، وابتسامي
سيظل يكبر في عظامي
سيكون فوق يدي ، على قلمي
بصمتي ، في كلامي
سيميط عنه لثامه يوما بصمت
ياتي لينشر ليله الداجي علي بدون صوت
ياتي ، وما استبطاته الا لوقت
فأرى ، اراه على حقيقته
كتزييف لشخصي
كتكفير
كموت

شفائه واستعادته لقواه .. وما زادني الما وحزنا الا قوله في سطوره الاخيرة : « اشكر لك دعاءك وزغاريدك المقبلين وقد نذرت لهم وللحرم المصون امهم هدايا نفيسة عند ابلالي بحول الله ، واسلم لصديق العمر ... »

هنا اخذ المحاسني يشعر بنهايته .. فلم ينقطع — كما تقول ابنته (سماء) — عن ذكر الله وهو يعاني آلاما مبرحة .. ولم يهدأ الا بعد نظم ، في اخر لحظة من لحظات عمره ، قصيدة ، على هامش الملحمة العربية ، بعنوان « ربيع لا يفنى وازاهير لا تبلى » وقد استهلها:

سالت الهامي وخاطرتي وانا ضجيع كيف القاه

في ظهيرة يوم ٢٥-٣-١٩٧٢ ، كنت ببريد الاعظمية ، القي في الصندوق بعض ما اعتدت ، فاذا موظف هناك يتقدم نحوي بخطى هادئة وبيده مظروف ..

تناوحت مشاعري وتساقطت .. وانا احاول ان اكذب ما بدا يتصاعد من قرارة النفس ..

انه .. انه نعي .. وقد يكون نعي المحاسني !

وصدق ما كان مني ...

ذكوان المحاسني ينعى اباه الزكي : فقيد الادب والاخلاق ..!

غامت الدنيا امام ناظري ، فعدت اسفا كاسفا ..

مظاهر الدنيا الكاذبة ، طفقت — وانا اقود سيارتي — تمتزج بدموعي السواجم وحسراتي الحرى ، معلنة نهاية انسان ، وبداية اخر ...

وفي جنة الخلد يا صديقي..

بغداد — الاعظمية **وحيد الدين بهاء الدين**

في طريق العودة

« في طريق العودة ».. اسم الديوان الذي يعده الشاعر ليجمع قصائده الاخيرة .. وهذه القصيدة اوله ..

★

انا في الــدنيا .. ولكني عن الــدنيا رحلت
في سبيل اللــه .. مــا ضحيت فيها .. وبذلت
كانت العودة .. غنما او ضياعا.. ما سالت
كان باللــه بقــائي والى الله .. انتقلت
كان لي سر .. مـع اللــه .. وبالسر احتفلت
اتحرى الصــدق .. ان قلت مقالا .. او فعـلت
البس الاخلاص..ثوبا في حلاه.. قد رفلت
كانت الدنيا .. هي السجن .. الذي فيه اعتقلت
هــي زنزانة ايــا مي..التي فيها حللت
لا ابــالي .. ما شربت المر .. فيها .. وأكلـت
كلما صعــد نجمــي ساء حظي .. فنزلت
كلما ثبــت .. اقدا مي على صخر..زللت
كلمــا اقدمت .. عورضت .. بظلم .. فقفلت
كلما اوشكت ان ابلــغ امــرا .. مــا وصلـت
يــا دموعي ! انك النهر الــذي فيه اغتسلــت
من لهيب النار .. ماء باللظى فيه اشتعلت
سقت للدنيا مديحي وعلى الهجو حصلت
انا محســود .. على الطين .. الذي منه جبلت
وعلى الرنق من المــا ء الذي منه نهلــت
كنت نجما .. في شباب العمر .. لكني .. أفلت
ونجاحي .. قاب قوسين .. ولكنــي .. فشلت

مصر الجديدة — عامر محمد بحيري

صوت البواب :

كعادتي كل صباح ، اشتريت زجاجة لبن ، وخبزا ، وجبنا ، وبيضا ، ولم انس قطعة الشيكولاتة للست الكبيرة . صعدت الى الشقة ، فالتقيت بالست الصغيرة ، اشجان ، تهبط مسرعة . اتسعت ابتسامتها حين راتني ، بادلتها الابتسام ، ثم قلت :

ــ تأخرت عليك ؟.

اتسعت ابتسامتها اكثر ، وقالت :

ــ لا .. خذ ما اشتريت لك ...

ــ والست الكبيرة ؟.

ــ عندها ما يكفي .

لم يدهشني سخاءها ، اعتدت عطاءها الوفير ، مما جعلني اطرب حتى لسماع صوت حذائها . لكني دهشت لابتسامتها العريضة ، وخروجها قبل الموعد بنصف ساعة ، دون افطار .

هبطت في اثرها ، كان المصعد معطلا ، احببت ان اتبعها حتى باب العمارة ، ربما تطلب مني شيئا . فجاة توقفت ، والتفتت الي ، سالتني :

ــ اتريد شيئا يا عم عبده ؟.

ودائما تسالني ان كنت في حاجة الى مال او طعام او كساء . الدنيا بخير حقا .. لا .. ان دنياي لا تتعدى هذه البنت الحلوة الطيبة ، اشجان هانم .. انها الدنيا ، وهي الخير كله !

وقبل ان اجيب ، امتدت يدها بورقة نقدية ..

ــ خذها ، يمكن امراتك تطلب مصاريف .

اردت تقبيل يدها الممتدة ، لكنها سحبتها مبتسمة .

فتحت باب حجرتي القابعة تحت السلم ، كانت صفية تغط في النوم . اوجع اذني شخيرها المنفر ، لكني تحاملت ، وزعقت في اذنها حتى افاقت .

دعوت صفية وولدي الصغير لتناول افطار يخلو من الفول المدمس . فرحت صفية ومدت يدها تلتهم قطعة جبن كبيرة ، وانهمك الولد في شرب اللبن ... طلبت منه التريث حتى اعد له سندويش الجبن ، لكنه لم يتنبه الى ما قلت الا بعد ان اتى على زجاجة اللبن .

ولهج لسان صفية بالدعاء لستها الصغيرة الطيبة اشجان .

وفي المساء ، هبط الاستاذ بهاء من السيارة ، وحياني . عرفت حينذاك سر ابتسامة اشجان هانم ، فقد حضر الاستاذ بهاء لشراء الشبكة .

صوت رافت :

حين دخلت المكتب ، فوجئت بحضورها قبلي ، على غير العادة . وحين سالت عن السبب ، ابتسمت ، وقالت انها تود كسر العادة المملة ، ثم اتسعت ابتسامتها . كم تمنيت ..



بقلم حسني سيد لبيب

لا داعي للتذكر ، النسيان خير دواء . حين تلمست الطريق الى قلبها ، اوصدت الباب دوني . اعتذرت متلطفة ، وادعت انها مرتبطة . ثم تعاهدنا على ان نظل زميلين ، او صديقين . وعانيت صعوبة بالغة في اخفاء اوجاعي ، وفشلت في كبت امنيتي . وادت افراح قلبي ، وتحاملت جراحي .

حدثتني عن جمال الربيع ، لكني تمنيت ان احدثها عن جمالها الذي هو احلى من الربيع .. قبرت امنيتي ، واصغيت لحديثها الحلو . وحين انتهى ما بيننا من حديث ، صمتت قليلا ، ثم امسكت سماعة التليفون ، ادارت القرص على مهل ، ثم وضعت السماعة ولم تتحدث ، وحين التقت عيوننا ، قالت :

ــ اردت الاعتذار لصديقتي عن موعد سابق ، لكني غيرت رايي .. ساذهب اليها .

تركتني وحيدا ، لم تنس وهي تودعني ان تهديني ابتسامتها الرقيقة .

تناولت ورقة ، اردت ان اعبر عن مشاعري ، ساضع الرسالة في درج مكتبها حين تعود ، وليكن ما يكون . ربما يهدا هذا المتمرد بين ضلوعي .

مللت الكتابة ، فخرجت اهرول في اثرها ، ركضت كي الحق بها . ناديت في ردهة المصلحة حين لمحتها :

ــ اشجان .. اشجان .

توقفت ، والتفتت تهديني ابتسامتها الوردية ، وتسال :

ــ ماذا ؟.

جمدت لحظات ، لا اعرف ماذا اقول ؟. وانقذت الموقف بابتسامة باهتة ، ثم قلت في صوت مرتعش :

ــ اردت ان اوصلك الى ..

تباطات في الحديث ، ارتبكت ، انتحرت الكلمات في جوف حلقي .

ــ متشكرة يا رافت .

ــ طيب ، على الاقل لغاية باب المصلحة .

ارتسمت ابتسامة الجيوكندا على شفتيها الرقيقتين ، اومات :

ــ ممكن .

وكانت سعادتي آنئذ لا تقدر بثمن .

وكان يوما من اجمل ايام حياتي .

صوت الفت :

زارتني في الصباح . خمنت انها اتت لاصحبها الى وسط البلد . سالت :

ــ ماذا وراؤك ؟.

ــ تصوري يا الفت ، كنت عايزة اكلمك في التليفون ، لكن قلت اشوفك احسن . وضحكت ..

اعرف اشجان منذ عهد الدراسة . كانت صديقتي التي ارتاح اليها . ازحم عقلها بمشاكلي الصغيرة التافهة ،



فتسمعني ، ثم تنصحني فتجذبني اليها صراحتها التي تنفرد بها عن سواها من الزميلات . تبادر بمصالحتي حين نتخاصم ، وتفض المنازعات التي تنشب بيني وبين الزميلات . لم اصادف صديقة مثلها ، فتولد في اعماقي ود صادق ، اصارحها به ، فتعتبر ذلك مجاملة ، وترد بابتسامة:

ـ اكره المجاملات .

طاب لنا الحديث ، لكن الشيء الذي زارتني من اجله ، لم تكشف عنه ، حتى اعتقدت انها زيارة عابرة .

احبها اخي امين من اعماق قلبه . كان يكتب لها عن مكنون الشعور ، فادعى كذبا اني رسوله الامين اليها ، ثم احتفظ برسائله في درج مكتبي ، في ركن قصي لا تمتد اليه يد . توجست خيفة من تبدل احاسيسه الى ما لا تحمد عقباه ، وما يزال على اعتاب الليسانس ، تلهج امي بالدعاء له . وحين يسألني عن ردودها ، اتذرع بالحجج ، فيقتنع بادعاءاتي ، وكان اخرها ان اشجان تخاف من تشدد امها ، فتحجم عن الكتابة لكنها تبادله نفس الشعور !.

وبعد انتهاء الامتحانات ، تلكأت في مصارحة اشجان ، حتى نطمئن على نجاحه ، ثم صارحتها .. ففاجأتني بقرب خطبتها لبهاء ابن خالتها . صدمني النبأ ، وبدا عليها التأثر ، اطرقت برهة ثم قالت :

ـ يبدو ان الاقدار تسيرنا ،وليس هنالك من طريق نختاره برغبتنا .

ـ الا تحبين ابن خالتك ؟.

دمعت عيناها ..

مسحت الدموع بمنديلي ،وتمتمت:

ـ امي مريضة يا الفت ، وهذه رغبتها ، ربما هي مشيئة الاقدار .

وتعاهدنا على ان نكتم ما حدث ، وتظل صداقتنا نقية طاهرة .

كان ذلك منذ شهر تقريبا .

سألتها :

ـ اهناك شيء مهم تودين الحديث فيه ؟.

ـ ابدا ..

قالتها بعد تردد ، ثم صمتت فترة قبل ان تستطرد :

ـ وحشتيني .. قلت ازورك ، واقضي معك بعض الوقت .

ثم ودعتها وانا اتكتم الحسرة على حظ اخي المكلوم الفؤاد . ولطالما قالت له امي :

ـ انه النصيب يا امين .

فأهرب الى غرفتي باكية . قد اكون انا السبب . وحين يهدا انفعالي ، التمس لنفسي العذر بان اشجان ربما لا تختزن نفس المشاعر الفياضة ، ربما هي تحب ابن خالتها.

صوت الام :

كم يساوي هذا اليوم ؟.. ربما



حسني سيد لبيب

●

يساوي العمر كله ، او ان الله تعالى اراد في هذا اليوم ان يعوضني عن العذاب الذي اعانيه . اقعدني الشلل خمس سنوات ، وداوت اشجان آلامي النفسية ، واعطتني من حنانها ما ثلج صدري ، وطيب خاطري . يشتري بهاء الشبكة في المساء ،كانت اشجان مترددة في قبوله ، فقد رات في الزواج عائقا يحول بينها وبين رعايتي . بادر بهاء ووافق على العيش معنا في الشقة ، فاضطرت في النهاية ان توافق .

حضرت اشجان من عملها في الثانية عشرة ، على غير عدتها .

ـ حضرت مبكرة ..

ـ استأذنت .

ولمست فرحتها الكبيرة ، فخفق قلبي ، ولاحت في الافق تباشير السعادة . لقد رق قلب اشجان اخيرا ، بعد التردد والتوجس، ومال الى بهاء . وكانت ابتسامتها الحانية مرآة صافية عكست رضاءهاوموافقتها فدعوت الله ان يبارك هذا الزواج .

صوت بهاء :

مرت ايام ثقيلة كدت افقد الامل في كسب مودتها . اوصتني خالتي بالصبر ، فهي ادرى بخفايا ابنتها . وكدت افض الموضوع ، وكان شيئا لم يكن ، حتى لا تمزقني الهواجس ، او اكون ثقيل الدم ، لم اطلب من خالتي اقناع اشجان ، فهي حريصة على اتمام الزيجة ، ورات في تباين مشاعر ابنتها بعض القلق الذي سرعان ما يتبدد . وتذرعت بالصبر،وحرصت على ارضائها بشتى الطرق ، حتى اني اهتممت بشؤونها الصغيرة التافهة ، واناقشها في كل ما يخصها متناسيا ذاتي تماما .. وقد نجحت في ذلك نجاحا ما ، لكني في بعض الاحيان احس اني افتعل المواقف ، واخشى ان تكون اكتشفت مذلةقلبي الذي ادماه العشق .

ومنذ اسبوع ، هنأتني خالتي بموافقة اشجان . طرت فرحا، ورقصت ثملا ، اعلنت تصميمي على شراء الشبكةفي نفس الليلة،فنصحتني بالتريث ..

ـ لا تخف .. لن تغير رأيها .

ورغم عدم ثقتي في كلماتها،الا اني اذعنت .

اعرف ان اشجان تنظر الى الحياة بمنظار غريب ، وكم اشفقت عليها. فهي لا ترى ان من الضروري ادمان الفرح ، حتى لا تفجئنا الايام بما يدمي القلب ، ويحطم النفس . وبرغم الابتسامة التي لا تغيب عن

شفتيها ، الا انها تخفي نظرة التشاؤم والشك ، ولو اني اقرأ سرها في عينيها القلقتين .

قالت لي بعد اعداد الشاي ، وقبل خروجنا لشراء الشبكة :

ـ يجب الا تخفق قلوبنا فرحا وسعادة ، او عشقا لمغريات الحياة .

ـ وهل نعيش في ظلال الكآبة ؟

ـ التعقل مطلوب .

ـ احيانا يكون شيء من الجنون اجدى لحياتنا ، وقليل من الملح يصلح الطعام !

حملقت في امها قعيدة الكرسي ، ثم قالت في صوت اشبه بالهمس :

ـ الحرص واجب .

ـ لكن الخوف نوع من الجبن .

ـ بعض المخاوف تنبيء عن المستقبل الكامن في عروق الزمن .

كدت اقهر امام جدلها الذي لا ينتهي . حاولت انهاء الحوار :

ـ هل نحن مختلفان ؟

ـ لست اعني ذلك . لكن يلذ لي اكتشاف مغالطات الحياة .

ولمست خالتي ما اعانيه فقالت ضاحكة :

ـ كفى فلسفة يا اشجان .

وشاركتها الضحك :

ـ انتصرت اشجان يا خالتي .

وهبت واقفة ، وقالت لامها :

ـ لم تأخذي العلاج .

اتت بعلبتي الاقراص ، وكوب الماء .. ازدردت خالتي حبتين ، ثم رشفة ماء ، وحمدت الله .

باركت خالتي زواجنا .. ودعت لنا بالسلامة ونحن نتأهب للخروج . خفق قلبي لكلماتها النابعة من اعماق القلب . وتأثرت اشجان بهذه الدعوات ، فاحمرت وجنتاها .. ثم امسكت يدي ، وضغطت على اصابعي . كانت مشرقة الجبين ، باسمة الثغر .. لكن شيئا آخر اهم من ذلك بكثير احسست به يسري في انامل ، فقد انتقلت نبضات قلبها من اناملها الى اناملي .. واحسست وكأن دماءها امتزجت بدمائي .. او هكذا تراءى لي .

وكان يوما من اعظم ايام حياتي .

صوتها :

هل وافقت ؟ .. لست ادري .. اثارتني كلمات امي ، فاستجبت لها . تركت دفة الحياة توجهني كيفما تشاء ، تتقاذفني امواجها ، وتعبث بي الاقدار . لم افكر قط في مستقبلي المجهول ، وكأني مسوقة قسرا . اقبل يوم شراء الشبكة ، ليكن ما يكون ، سيأتي في المساء ، فماذا افعل ؟ .. لا شيء .. ما الضير في ان تسير حياتي اليوم على وتيرتها العادية . لا داعي لاشاعة الخبر بين الصديقات والزملاء . اثناء خروجي الى العمل ، تفحصتني عينا امي .. التفت اليها مبتسمة . تنهدت ، وخالجني احساس بان ابتسامتي منحتها لامي كبطاقة اعتذار عن برودي وصمتي . التقيت على السلم بعم عبده البواب . توقف جامدا . حدجني بنظراته ، كان الوقت مبكرا وتعجلت النزول دون افطار .. تسرعت .. واريت احاسيسي خلف ابتسامة . وتركت له ما اشتراه ، وهبطت الدرج ، لكنه هرول في اثري . التفت ورائي ، سألته ما اذا كان يطلب شيئا ، مرة اخرى ارغمه على الصمت ، نقدته ورقة نقدية ، فانثال لسانه بكلمات الدعاء ..

جلست الى مكتبي ، لم يحضر احد بعد ، بعد دقائق حضر رأفت ، ابتسم قائلا :

ـ ما كل هذا النشاط يا اشجان ؟

ـ اجرب كسر العادة المملة . قابلت في الطريق وجوها غير تلك التي اراها كل يوم ...

شئت الاكثار من الكلام حتى لا يلاحقني باسئلة قد تربكني ، قد تردني الى الواقع ، قد تردني الى الشرود الذي اهرب منه بطرق شتى .. والبعد عن الوحدة ، والابتسام ايضا . بالحديث ، والانغماس في العمل ، لكني وانا اتحدث مع رأفت ، تذكرت طلبه اليتيم ، كان ذلك منذ شهور . وحين اتفقنا على ان نطوي هذه الرغبة ، ونظل كاصدقاء في حدود العمل ، تركت علامات الاستفهام بصماتها على علاقتنا . وبعد ان كنت اتحدث على سجيتي معه ، بدأت انتقي الكلمات ، وبعد ان اقنعني بانه الرجل المناسب ، طوى رغبته اليتيمة ، وعاملني برقة بالغة ... وتنفيذا لطلبي ، اهال على رغبته ستار النسيان . كثر شرودي ، لماذا اذكر كل هذا ؟ .. امسكت سماعة التليفون ، كي اعتذر لبهاء عن موعد اليوم ، طالبة منه تأجيل شراء الشبكة الى موعد اخر ! .. لكني ترددت حين اتاني صوته عبر الاسلاك .. وضعت السماعة .. حدجني رأفت بنظراته المبهمة . استأذنت ، متعللة بموعد مع صديقة ، شئت الاعتذار عنه بالتليفون ، لكني تراجعت .. و .. وسأذهب اليها حسب الموعد .. هرولت خارجة ، هاربة من نظراته الجارحة .. لكنه اقتفى اثري ، ونادى وهو يحث الخطى . دهشت .. سار بمحاذاتي حتى باب المصلحة ، وكان سعيدا ، تلك السعادة التي سرعان ما يختفي بريقها حين نفترق !

ودائما تعرف قدماي طريقهما الى الفت . اشعر بحنين جارف يشدني اليها . انها صديقة العمر ، بل هي اختي التي لم تنجبها امي .

وما صنعته الاقدار ، اصابني بصدمة عنيفة . دائما اشعر بالحنين الى لقاء امين ، اخيها ، لكني تكتمت الهوى ، وعرفت فيما بعد انه تكتم الهوى مثلي . وكانت الفت ، دون ان تدري ، حجر عثرة في طريق المحبين . حجبت عني رسائله ، ولم تنقل لي شعوره ، وكان امين طرازا فريدا ، فقد واد مشاعره ، وحين حاول التعبير عنها ، امسك القلم وكتب .. كتب كثيرا .. وطيبت الفت خاطره ، وكذبت عليه ، حرصا منها على مستقبله الدراسي ، هكذا قالت لي ..

منذ شهر ، صارحتني الفت ، وكان بهاء قد تقدم للزواج مني ، ولم اكن املك فكاكا من رغبة امي قعيدة

تطهر

من مجموعة « اغنيات من خارج العصر »

★

تطهرت من كل الخطايا بحبها ... كما المعدن المصهور بالنار يطهر
احس متى كانت بقربي انني ... حبيبة رمل في لظى الشمس تسكر
وقد خلصت من كل شيء يشوبها ... كما يخلص الجسم الذي يتبلور
واني رحيق الزهر حوله اللظى ... اريجا لارجاء الفضاء يعطر
واني لحسن وفعته انامل ... نمتها وتاهت بالاصالة عبقر
واني طفل علقت نظراته ... بصدر ثوى فيه الحنان المعطر
فيجهش من فرط السعادة بالبكا ... على راحتي ام تحن وتغمر
واني ملهوف اتاه مغيثه ... بكف كماء المزن تحيي وتكثر
واني واني .. يعجز القول كله ... عن الوصف .. اني طاقة تتفجر
سموا وابداعا وصدق طوية ... وفكرا له قلب وقلبا يفكر

ملاكان عيناها يحيطان وحدتي ... ببحر امان بعده ثم ابحر
يشف امامي الكون حين اراهما ... فابصر - وافراحه - ما ليس يبصر
وتلغى حدود بين ماض وحاضر ... ومستقبل في حلة الوعد يخطر
رضينا بنعمى الروح لم نبغ غيرها ... ستبقى ويفنى ما سواها ويدثر

دمشق — سعيد ابو الحسن

الكرسي ، فراحتها النفسية جزء من العلاج ، وتعويض لها عما تعانيه . والهبت الفت نار الوجد في فؤادي بتلك الصراحة ، وبدات اتسمع دقات قلبي المتمرد بين الضلوع .

تحدثت مع الفت في كل شيء ، وكان قلبي يدق بعنف ، يتحدى ضعفي . لم افلح في تبرير زيارتي المفاجئة . وحدثتني عن تأنيب امين لتصرفها ، ووصفت لي الاكتئاب النفسي الذي اصابه .. قلت في صوت خفيض :

ـ انه النصيب .

النصيب ، يا لها من كلمة .

توجهت الى البيت في حوالي الثانية عشرة . دهشت امي لتبكيري في الحضور ، لكنها ارجعت ذلك الى الفرحة التي غمرتني . وفرحت كثيرا بالتبرير الذي اهتدت اليه ، سيؤدي ذلك الى مزيد من الراحة النفسية .. والى مزيد من التقدم في صحتها .. يا رب ، هل تمنح امي من قدرتك القدرة على المشي ؟ وانبجس الدمع السخين ، فواريته عن امي .

حضر بهاء ، كان مرحا ، وسعيدا . قررت ان يتم كل شيء في هدوء . انها مشيئة الله . ومهما تكن مخاوفنا ومحاذيرنا ، فان عدالة السماء ستفرض حكمها في النهاية . ثم ، نسيت الدور الذي رسمته ، وجادلت بهاء ، تشبع حديثي بروح التشاؤم ، وحين يبشرني بالبهجة ، ويطلب مني التفاؤل ، ارده الى المخاوف ، والى ان السعادة لا تدوم ! افاقتني امي ، نهرتني :

ـ كفى فلسفة يا اشجان .

تأهبنا للخروج . باركت خطواتنا ، دمعت عيناها وهي تقول :

ـ كنت اود ان اصحبكما ..

كدت ابكي مثلها ، لكني تمالكت نفسي ، امسكت يد بهاء ، ضغطت على اصابعه ، وتلاقت عيناي بعينيه .. التفت الى امي فلاحظت ان نهر الدموع قد جف ، واشرقت ابتسامة حانية على محياها . خفق قلبي . ادمت النظر الى بهاء ، الى عينيه .. ابتسمت .. احسست برجفة يقشعر لها بدني ، اتسعت ابتسامتي .. كانت امي سعيدة ، منتهى السعادة .. وكانت ابتسامتي ، في هذه المرة ، ابتسامة نابعة من اعماق الفؤاد .

وكانت هذه اللحظة من اجمل لحظات العمر ، او هي العمر كله !

القاهرة — حسني سيد لبيب



عبد الرزاق الهلالي

عبد الرزاق الهلالي

بمناسبة صدور كتابه
تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني

بقلم جمال الدين الالوسي

• • •

الاستاذ عبد الرزاق الهلالي ، كاتب أديب معروف ، مولده ونشأته الاولى ، البصرة ، ذات التربة الدمثة ، والمياه الدافقة ، والبساتين الوارفة ، والنخيل الباسقة ، يأتيها رزقها رغدا من ثمرات البحر والنهر والنخل ، وتفد اليها تجارات الهند وفارس والصين والخليج العربي ، فطبعت اهلها على الرضا ، وعلى دماثة الخلق ، ولين العريكة ، وكرم النفس ، ورقة الطبع ، ورهافة الحس ، تتجلى هذه الخصال الحميدة جميعها ، بصديقنا ، الاستاذ عبد الرزاق الهلالي : من حديث حلو ، واخاء صادق ، ووفاء نادر ، يرعى الواجبات الاجتماعية ، ويقوم باعبائها ، ملتزم لادابها برغم ما فيها من بذل وارهاق ! جم النشاط والحركة . لا يعرف الركود ، ولا يركن الى الراحة ، شأن الكثيرين ممن اعتقوا من نير الوظيفة ، واحيلوا على المعاش ، يشكون الفراغ ، وتفسد حياتهم البطالة والتعطل !

اما صديقنا الهلالي ، فوقته قد ملاه بالبحث والدرس والقراءة والتأليف ، ومراجعة المراجع في الصحف ، والمجلات والكتب ، فمن المكتبة الوطنية الى مكتبة الاثار او المجمع العلمي ، او زيارة الادباء الذين يعهد الخبرة عندهم فيما يجمع ويحقق ! وقد زاد نشاطه ، بعد الستينات ، فلا يمضي وقت الا ويطلع على قرائه بمقال ممتع ، او بحث مفيد ، او قصيدة من قصائده الاخوانية ، التي يغلب على ديباجتها الدعابة والمطارحة ! ولا يمضي شهر الا وتقرأ له في « الاديب » او « الهلال » او « العربي » او « العالم الثقافي » او « البلاغ » ، او تسمع له محاضرة ادبية ، يدعمها بتحقيقات وشواهد ، يخرج منها السامع بفوائد لا تحصى ، وبمتعة لذيذة !

وادب الهلالي ، خفيف الظل ، شفاف الاهاب ، لا يثقل على قارىء او سامع ، بلغة سهلة لا ابهام فيها ، وسعت ثقافته معارف عصره ، وتسنى له ان يطوف البلاد شرقا وغربا ، موفدا بحكم وظيفته تارة ، وسائحا مشاهدا تارة اخرى ، فاكتسب خبرات زادت من ثقافته ، واكسبته صداقات اصدقاء أفاضل ، نفعته صداقاتهم ، يواصلهم ويواصلونه ، ويكاتبهم ويكاتبونه ، شعرا ونثرا ، وهو بطبعه ، طلعة ، يقرأ ويعلق ويسجل ، ولا يكتفي بالنظرة العجلى ، ويستقصي اطراف موضوعه ، ولا يدع لمستزيد زيادة .

تعلم صديقنا الهلالي ، وفق المنهج الدراسي الرسمي فانهى دراسته الابتدائية والمتوسطة في البصرة ، وانتمى الى دار المعلمين الابتدائية ، ونال شهادتها ، والتحق بكلية التربية ــ دار المعلمين العالية ــ وحصل على شهادة (الليسانس) باللغة العربية ، بتفوق ، وعلم ردحا من الزمن في دار المعلمين الريفية ببغداد ، وشغل وظائف مهمة في دوائر الدولة المختلفة ، كان آخرها منصب المدير العام للمصرف الزراعي ، لكنه لم يقف عند هذا الحد من التعلم ، ولا وقف تطلعه عند الوظيفة ، والكرسي الوثير ، والراتب الكبير كما يفعل الموظفون ، بل رغب بالاستزادة من العلم والثقافة ، فألزم نفسه بدراسة القانون ، ودخل كلية الحقوق وبعد اربع سنين ، نال شهادتها !

والاستاذ الهلالي ، كما قلنا آنفا ، طلعة ، كلف بالمعرفة وراح يستزيد من الثقافة فجد في طلبها ، وراح يعد العدة للاستزادة من الوانها ، ويشارك ويساهم في النشاطات الادبية والاجتماعية ، فاذا اراد ان يكتب في موضوع ، اندفع الى اعداده ، بنشاط ، يراجع وينقب ويبحث ويسال ولا يترك مرجعا يزيد موضوعه علما وفائدة ، الا قراه ، وشعاره « واسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

والثقافة كما لا يخفى امرها ، على القارىء الكريم ، لا حد لها عند من يطبع نفسه على حب المعرفة ، وعلى من يكلف بالعلم ، تضيق حتى تقف جامدة عند بعضهم ، على نيل الشهادة ، فاذا نالها ، فعلى العلم السلام ، وعلى الكتاب الف طلاق . وتتسع فلا يقف عندها حد ، ولا تنتهي عند عمر ، من المهد الى اللحد كما في الاثر ، ولا تجمد على لون

واحد من الوان التخصص . وعندي ان صاحب التخصص اذا وقف عند موضوع تخصصه ، ولم يشارك في الوان اخرى ، فحظه من الثقافة ضئيل، ونصيبه من المعرفة قليل ، فالمثقف هو ذلك المتعلم دائما ، والمتجدد باستمرار هو الذي يهيء عقله لاكتساب المعرفة مهما تفرعت ، ولا يجمد على علم خاص . والمثقف هو الذي يضيف الى علمه الذي تخصص به ، مشاركات ادبية ، وفنية ، يتذوق الشعر والقصة والتاريخ والادب ، والرسم والموسيقى والغناء ، وليس هذا الحكم مقصورا على العلماء ، وانما يسري على الادباء والكتاب والشعراء وغيرهم من اهل الفنون . والثقافة مهما تنوعت واتسعت ، قليل نفعها اذا اقتصر نفعها على صاحبها ، ولم يسرها للناس وفي خدمة الجماهير ، والله سبحانه وتعالى قد اخذ عهدا على العلماء ، ان ينشروا علمهم ويبينوه للناس ، قال تعالى « واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب ليبيننوه للناس » وقدر العالم ، بقدر ما ينفع الاخرين ، ممن يعايشهم من ابناء قومه ووطنه ، وبقدر ما يضيء لهم من سبل الحياة.

وصديقنا الهلالي ، كذلك ، لا يدركه ركود او فتور، سعي دائب ـ ما شاء الله عليه ـ وعين الحسود فيها عود! فهو لا يمضي شهر ، الا ونقرا له ، مقالا نافعا او بحثا مفيدا او كتابا ممتعا ، وقد اثرى المكتبة العربية ، بواحد وعشرين كتابا ، شملت الوانا من المعرفة ، فتارة يكتب في الادب والادباء ، واخرى في الشعر والشعراء ، وثالثة ، تجده يكتب في الاصلاح الاجتماعي والاقتصاد الزراعي ، وفي السير والتاريخ وفي الهجرة من الريف الى المدينة وفي ملامح المجتمع العراقي وآونة في وصف ما شاهده في رحلاته واسفاره(1) او يعكف على اعداد دراسة ، يرى حاجة المتعلمين اليها ماسة ، كما فعل فجمع مادة كتابه « تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني » ويذكر ادباء وشعراء ، كان لهم اثر فعال في نهضة العراق الادبية ، وقد نسيهم ابناء هذا الجيل او كادوا ينسونهم ، فطفق يجمع مادتهم ، وينشر اخبارهم ويتخير لهم من عيون شعرهم ، وقراء « الاديب » يذكرون هذه الفصول الممتعة ، بتقدير واعجاب .

وآخر ما انجز الهلالي من الكتب ، « تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني » طبعه في نهاية شهر نيسان سنة ١٩٧٥ وساعدت وزارة التربية مشكورة على نشره (والكتاب يخصها قبل غيرها ، ومادته من صميم عملها وكان الاحرى طبعه على نفقتها !).

وتاريخ هذه الحقبة ، يكتنفها الغموض ، ويعتور مصادرها الضياع ، بسبب فقدان الكثير من المصادر والملفات التي تحتوي على الوثائق والتقريرات ، ووزارة التربية بأجهزتها ، تنقصها هذه الوثائق والحوليات والاحصائيات ، والوقوف على اخبار ذلك العهد، كلف الباحث رهقا ، وتطلب منه صبرا ، لا يتحمله الا اولو العزم من الذين ، ندبوا انفسهم للعلم . وقد وفق صديقنا الهلالي الى جمع العديد من هذه الوثائق من المكتبات والصحف التي كانت تصدر ـ ذلك العهد ـ وتشاء المصادفة ، ان يلتقي في لندن بشخص اميركي ، هو الاب « جي.جي. دسكن »احد الاباء اليسوعيين الذين عملوا في «كلية الحكمة» في بغداد ، وعن هذا اللقاء ، يقول الهلالي « .. ان هذا الرجل لما سمعني ، احدث زوجتي باللغة العربية او بالاحرى ، باللهجة العراقية ، اخذ يرهف السمع ـ لانه يعرف العربية فلما تأكد اننا من العراق ، تقدم منا قائلا : صباح الخير.. انا الاب دسكن ، كنت مدرسا في كلية الحكمة ببغداد !

قلت له : اهلا وسهلا .. وانا عبد الرزاق الهلالي !

الا انه لم يكد يسمع باسمي حتى قال :

ـ يا الله ، ابحث عنك في بغداد ولا اتمكن من مقابلتك ، والقاك في لندن ؟! قلت ان هذا غريب وماذا تريد من مقابلتي ؟ قال : كنت اريد الحصول على نسخة من كتابك « تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني » قلت ولماذا تبحث عن هذا الكتاب ؟ وهل حصلت على نسخة منه؟ قال : كنت بحاجة ماسة لها ، لاني اخترت موضوعا عن تطور التعليم في العراق (2) ، وسجلته في قسم التربية بجامعة بتسبرغ في الولايات المتحدة ، ولما لم احصل على نسخة من كتابك في مكتبات بغداد ، استعرت نسخة الباحث العراقي الاستاذ كوركيس عواد ، والواقع اني افدت كثيرا من كتابك هذا .

قلت : وهل انهيت دراستك هذه ؟ قال : نعم لقد

---

(1) لقد صدر للاستاذ الهلالي منذ سنة ١٩٤٥ حتى يومنا هذا ، الكتب الاتية :

١ ـ صور واحاديث اجتماعية .
٢ ـ ٤٠ يوما في لندن .
٣ ـ ولادة وابن زيدون .
٤ ـ نظرات في اصلاح الريف (ثلاث طبعات) .
٥ ـ معجم العراق ج ١
٦ ـ معجم العراق ج ٢ .
٧ ـ مشاكل الائتمان الزراعي في العراق .
٨ ـ الهجرة من الريف للمدن في العراق .
٩ ـ دليل العراق الحديث ـ انكليزي ـ .
١٠ ـ تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني.
١١ ـ الريف والاصلاح الاجتماعي في العراق .
١٢ ـ الزهاوي بين الثورة والسكوت
١٣ ـ تعمير القرية في العراق .
١٤ ـ الشاعر الثائر الشيخ محمد باقر الشبيبي .
١٥ ـ المجتمع الريفي العربي والاصلاح الزراعي .
١٦ ـ قصة الارض والفلاح والاصلاح الزراعي في الوطن العربي .
١٧ ـ ادباء المؤتمر .
١٨ ـ زكي مبارك في العراق .
١٩ ـ مختارات الزهاوي من عيون الشعر .
٢٠ ـ دراسات وتراجم عراقية .
٢١ ـ تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني .

2 — The Genesis of Government Educational System in Iraq

اغنية قديمة

لـك عطر الهـوى وبـوح هيـامـي وحنيني علـى المـدى يا ((خزامي))
يا جمالا يزهـو علـى الناس تيهـا كيف يرضيك فـي الغرام خصامـي
لسـت انساك كلما خيم الليـل وثـــارت عـواطفـي واوامـي
وتلفت والاسـى يقتـل الـروح شقيـا لسـالـف الايـام
عـل طيفا يلوح في افـق عمري فتهـل الانـوار بعـد الظلام
يا روى ثرة التهـاويم اذكت ميت الشـوق في بقايا حطام
عللينـي فانني اليـوم وحـدي اتشهـاك يا دنـا احلامـي
ودعينـي استلهم الشعر حيا عبقريـا مـن ثغرك البسـام
يا غرامي الوحيـد يا روعة اللحن شجيـا ويا شـذا الهـامـي
سوف تبقين في حياتي وحيـا شـاعريـا منـورا ايامـي

بغداد — عبد الخالق فريد

نوقشت رسالتي ونلت درجة الدكتوراه سنة ١٩٧١)).

وهكذا وجد الهلالي ، فرصة موآتية ، فطلب منه ان يزوده بنسخة من اطروحته ، ولما لم يكن لديه نسخة زائده اعطاه عنوان (مركز الوثائق) الذي لبى طلب الهلالي فأفادته هذه الاطروحة وزودته بالكثير مما كان هو بحاجة اليه من الوثائق والاحصائيات والمعلومات المستقاة من مراجعها الانكليزية الصادرة في عهد الاحتلال وما بعده !

والكتاب ، جاء مدعما بالوثائق والصور والاحصائيات بحث ملامح المجتمع العراقي في تلك الحقبة ، وعرض فصلا يبين نفوس العراق بولاياته الثلاث ، البصرة وبغداد والموصل ووصف حالة المعارف في العراق في أواخر العهد العثماني ، وقيام الادارة المدنية ، اثر الاحتلال البريطاني ، وتنظيم شؤون التعليم في ولايتي البصرة وبغداد ، واثر الدكتور (جون فانيس) في البصرة و (حسني عبد الهادي) الذي تولى ادارة معارف بغداد ، ونوه بفضله حسن وفقي آل قاضي ، وفصل الحالة الثقافية التي كانت عليها المدن العراقية والصعوبات التي لاقاها المكلفون بتنظيم التعليم وما رافق فتح المدارس من صعوبات تتمثل في قلة بالمعلمين وندرة في الكتب المدرسية ، وفقدان المباني التي تصلح لاتخاذها مدارس وشحة في المال ، المقتضى للفتح الجديد ، وابناء هذا الجيل لا يقدرون هذه المشكلات ، ولا يعرفون كيف نشأ التعليم وتدرج ، فتحوا عيونهم في قراهم ومدنهم كبيرة او صغيرة ، ووجدوا المدارس تغص بالبنين والبنات على اختلاف درجاتها ، ابتدائية وثانوية للجنسين وكليات وجامعات ، تضم الاف الطلبة في بغداد والبصرة والموصل والسليمانية ، لا يعلمون ما عانت البلاد ، من قلة المعلمين والمتعلمين ، يكفي ان يعلموا ، ان بغداد الى سنة ١٩٢٠ ، لم يقم منها الا صف واحد ، كان النواة للمدرسة الثانوية الوحيدة ، وطلاب هذا الصف لا يزيدون على ثمانية طلاب فقط !!

ان الموضوعات التي عالجها صديقنا الهلالي ، كان الرائد الاول في بحثها ، ينير كتابه نشأة التعليم في العراق ، ويوضح الخطوات التي رافقت هذه النشأة ، مدعمة بالوثائق والقرارات الرسمية ، وبحق انه وثيقة ثمينة سدت نقصا كبيرا ، وقد اشتمل على معلومات تهم كل مرب ، او معني بشؤون التربية والتعليم .

واني ، وانا الذي نشأ في تلك الحقبة ، وتخرج في دار المعلمين حتى تكاملت ايام مديرها المربي الكبير محمد عبد العزيز ، الذي له اليد الطولى ، في نشأة التعليم وتطوره في العراق ، وعملت من مطلع العشرين ، وواكبت تطور التعليم بمراحله ، اعترف بأني ، بعد قراءة كتاب الصديق خرجت بطائل من المعلومات كبير ، وبفوائد ونفع لا حد له ، اعاد الي ذكريات ومعلومات كان قد عفى عليها الزمان ، وغدت بعداد النسيان ، فأعادها حصيلة حية ، تنبض بالحياة ، وحفظها من الضياع .

فللمؤلف التقدير المقرون بالاعجاب والتهنئة الصادقة ، على ما بذل من جهد ووقت وعناء ، وللنجاح الذي وفق اليه ، شأنه في كل ما كتب والف ، فقد قدم خدمة جلى للعلم والمتعلمين ، بما يسر للباحثين وطلاب الدراسات العليا مادة خصبة لا يظفرون بها ، بغير هذا الكتاب الرائد .

ولا يفوتني ان استرعي نظر وزارة التربية والتعليم العالي ، للاستفادة من هذا الكتاب الذي تفتقر اليه مكتبات المدارس ، وطلاب الاختصاص ، فهو مرجع مهم لهذه الحقبة التي نجح في تأريخها الاستاذ الهلالي .

الاعظمية ـ بغداد — جمال الدين الالوسي



الحاج محمد امين الحسيني

الحاج محمد امين الحسيني

اعماله العظيمة في نصرة ثورة جبل العرب وسوريا بقيادة سلطان الاطرش ١٩٢٥ وينشر لاول مرة

بقلم عجاج نويهض

* * *

في سنة ١٩٢٥ ثار سلطان الاطرش ورجاله للمرة الثانية على فرنسا . وكانت ثورته الاولى قبل ثلاث سنوات لما انتضى السيف في وجه فرنسا ، ليحمي عربيا لاذ به ولجأ الى داره في غيابه عن البيت ، هو الوطني ادهم خنجر من لبنان وادهم كما قيل قريب لكامل الاسعد الاول الوائلي ، زعيم جبل عامل ، وآثر سلطان وقتها الثورة المكشوفة الجبين في سبيل المحافظة على عادات العرب وتقاليدهم الموروثة ، من حماية المستجير وضمان الامان له ، آثر سلطان هذا ، على مجاراة فرنسا في خرق تلك العادات وانتهاك حرماتها ، وعرفت هذه المأثرة الكبيرة بسلطان الاطرش في العالم العربي كله ، حاضرة وبادية ، وسارت الركبان بأحاديث هذه الثورة وقصة ادهم خنجر قبل اليوم بثلاث وخمسين سنة في كل مشرق ومغرب .

اما ثورة ١٩٢٥ فهي الثورة التي زرعت مجدا للعرب في كل بلاد يرقص فيها للبطولات والفروسيات في العالم . وحديث هذه الثورة امسى في صفحات التاريخ من حيث الوقائع والمعارك والاستشهاد الغزير والدم القاني . والفت الكتب في ثورة سلطان لسنة ١٩٢٥ من عربية وافرنجية ، وملئت اعمدة الصحف الغربية لمدة سنتين او اكثر باقاصيص الاعاجيب من البطولات في مسارح الجبل والغوطة واقليم البلان وراشيا وحمص وحماه . واخر ما نعلم من تأليف تاريخي احصائي في العربية في هذا الباب ، كتاب « الثورة السورية الكبرى » ١٩٧١ في اكثر من ٥٠٠ صفحة من الحجم الكبير لمؤلفه الاستاذ سلامه عبيد، والاستاذ سلامه ينتمي الى اسرة عبيد وهي من اكرم الاسر العربية المتوطنة في جبل العرب والجمهورية اللبنانية معا (١) ، ونقول في هذا الموطن ، ان القصد من كلامنا في هذا الفصل الرابع من هذه الفصول التي نضعها بين ايدي القراء الكرام ، في العالمين العربي والاسلامي ، محمولة على اجنحة مجلة « الاديب » ، هو بسط الاعمال العظيمة التي بذلها وقام بها صاحب هذه السيرة رحمه الله ، في سبيل الثورة السورية في سنيها الاولى من ١٩٢٥ – ١٩٢٧ على ما نبينه بوضوح تام . وبنتيجة ذلك نعلم مناحي من نضال **الحاج محمد امين الحسيني** عروبيا ما هو واجب علينا تدوينه ونشره استكمالا لسيرة هذا الزعيم في ما نعلم علم اليقين من اسماط حقائقها وعقود وقائعها والاقتصار على لبابها وجواهرها ، والا نكون قد وقعنا في التقصير ، ذمة ووجدانا ، نحو زعيم هو المثل الاعلى في البذل والعطاء والتضحية ، اكثر من نصف قرن اطرادا ،وفلسطين هي بيئته وبيته ، وموطنه وعشه الذي منه درج ، والقدس مصلاه ومسجده ، وقد قضت مشيئته تعالى ان اكون بين يديه عشر سنين حفلت بمعظم برامجه ومخططاته . والله ولي التوفيق .

رشيد طليع : نابغة من نوابغ العرب في اتقان فن الحكم والادارة الحكومية وتطبيق القوانين بغير جنف . وهو من « جديدة الشوف » قرب المختارة (لبنان) ، تعلم وحصل علومه في الاستانة متخصصا في الادارة الحكومية وجعل يتولى المناصب الرسمية في الدولة العثمانية منذ اول هذا القرن . وفي اثناء الحرب العامة الاولى كان متصرف حوران فطرابلس الشام ، ثم نقل الى اللاذقية فوقع احتلال العرب وفتحهم لسوريا خريف ١٩١٨ وهو في اللاذقية . والى تلك السنة لم يسبق له الاشتغال بالقضية العربية السياسية اذ كان منصرفا بكل قواه الى الوفاء بواجبات المناصب التي شغلها . وبعد ان استولى الحكم العربي على اللاذقية ، وهو انتهى امره حاكما بصفة متصرف ، صفى اموره وجاء بلده في لبنان وجعل يرقب الاحوال مجتنبا الصدام مع الفرنسيين ، وهم يعلمون وزنه حق العلم .

ولكن رشيد طليع كان قد ترك في اللاذقية سيرة وضاءة ، تدل على علو كعبه في سلامة الشخصية وحسن الادارة ، وحل المعضلات ، وعرف هذا فيه العاملون في حقل القضية العربية ، وهي الى ذاك الوقت محجبة غير

● راجع « الاديب » عدد يونيو الماضي صفحة ١٨

سافرة ، يدير سياستها الخفية ويوجه تياراتها رجالات « العربية الفتاة » المؤمنون المنبثون في الاقطار العربية ، وفي الجيش العثماني ، وكانت اللاذقية يتولى توجيه التيار العربي الخفي فيها نفر من العاملين على رأسهم محمد الشريقي ويوسف يسين ، وهذان العربيان الممثلان للتيار العربي المستور ، كانا على صلة خفية وطيدة برشيد طليع المتصرف ، لما عرفا فيه من صدق المروءة العربية ، مع كونه بحكم منصبه يعد موظفا عثمانيا ، وازدادا وقوفا على كرم معدنه القومي في الايام الاخيرة العصيبة التي سبقت الاحتلال . وبعد الاحتلال سلم رشيد طليع مسؤولياته الى السلطات العربية وانسحب الى لبنان كما تقدم ، ولما استقر امر « العربية الفتاة » في دمشق ، ولم تزل محجبة كشأنها السابق منذ ١٩٠٨ بحث رجالها المسؤولون عمن يكون من رجال العرب المجربين في فن الادارة والحكم ، لتوسد اليهم المناصب الكبرى في سوريا ، والآمال يومئذ آمال امة تطلب الحياة والاستقلال ، وكان الشريقي من اركان « العربية الفتاة » ، ولرايه وزن كبير ، فاقترح اسم رشيد طليع الذي كان آخر متصرف في اللاذقية ، وبسط امره لجماعة « الفتاة » بسطا كافيا ، فقررت « الفتاة » فورا الابراق الى طليع وهو في « جديدة الشوف » ان يحضر الى دمشق ، وكان المبرق اليه الشريقي نفسه (٢) ، فلبى ، واجتمع به الامير فيصل ، وجرى له تعريف واسع بكبار المسؤولين القائمين بعبء الدولة العربية ، وعين اول ما عين « حاكم حماه العسكري » فبرهن عن جدارة زادت من اكباره ، ولما جعلت الامور تتعقد بين فيصل والفرنسيين وحصل تغيير في اوضاع الدولة والادارة ، نقل رشيد طليع الى دمشق يشغل منصب « مدير الداخلية » ، وهذا المنصب يعتبر مركز الحساسية والتعصب في الدولة الناشئة .

ولما اخذت الحال تتأزم بين فيصل وغورو بعد شهر اذار ١٩٢٠ ، رؤي ان ناحية حلب يلزم لها حاكم عسكري من اعلى طراز ممكن ، اذ جعلت العاصفة تقترب ، فعين طليع حاكما عسكريا لحلب وهنا في حلب كان ابراهيم هنانو يعمل مع طليع ، وايضا نبيه العظمة مدير شرطة حلب ، ووقعت الواقعة الكبرى في تموز ١٩٢٠ وطليع في حلب ، وبعد الاحتلال الفرنسي راى طليع طريقه من حلب الى جبل العرب ، حيث اقام اقامة مرتقب مترصد ، ساكنا هادئا في الظاهر ، وعينه على حركات الفرنسيين في تجزئة البلاد واقتيادها بخزائم الاستعمار الحديث . وهو يعلم طبائع البلاد من حوران وجبل العرب اذ كان المتصرف هناك قبل الحرب العامة ، وساعد الامير شكيب لما الامير رشح نفسه للنيابة عن حوران وفاز بها سنة ١٩١٣ وبقي نائب حوران الى نهاية الحرب خريف ١٩١٨ .

في خلال السنة ونصف السنة في حماه ودمشق وحلب ، امسى طليع من الذين يشار اليهم في البنان ولما اجتاحت العاصفة الفرنسية سوريا ، وخرج فيصل بن الحسين الى اوروبا ثم عاد وتوجه الى بغداد ، كانت « العربية الفتاة » في دمشق رأت ان تبقى وراء ستار ، فانشأت « حزب الاستقلال العربي » رداء خارجيا لها ، حزبا علنيا مكشوفا ، وكان هذا الحزب هو المهيمن على الحكومة العربية الفيصلية في دمشق ، وكان طليع لجدارته وثقة المسؤولين به ، قد اختاروه رئيسا لحزب الاستقلال.
ولما جاء الامير (الملك) عبد الله بن الحسين من الحجاز الى الاردن في ربيع ١٩٢١ ، واعلن خطته ، كان طليع لم يزل في جبل العرب ، فاجتمع رهط كبير من رجالات حزب الاستقلال في عمان وتشاوروا في المسير المشهود بعد دخول غورو سوريا ، وفي المصير المرتقب ، ومن صفوة ما اتفق عليه مع الامير (الملك) عبد الله ان يستدعي اليه رشيد طليع من جبل العرب ، ويكلفه تأليف اول حكومة اردنية عربية ترمي الى الهدف الذي تتمناه الامة ، فجاء طليع والف تلك الحكومة الاولى في اول نيسان ١٩٢١ متخذا لنفسه لا لقب رئيس الوزراء ولا شيئا من هذا النوع ، بل اختار لنفسه لقب « الكاتب الاداري »و«رئيس مجلس المشاورين » ، وهؤلاء المشاورون كانوا اول الامر ستة وهم : نائب العشائر الامير شاكر بن زيد ، وقاضي القضاة الشيخ محمد الخضر الشنقيطي ، ومشاور العدلية والصحة والمعارف مظهر رسلان ومشاور الامن والانضباط علي خلقي ، ومشاور المالية حسن الحكيم ، ومعاون نائب العشائر احمد مريود . وسارت هذه الحكومة على خطى كان من المتعذر الجمع بين غاياتها كلها : تنمية اوضاع حكومة عربية قومية على اساس الاستقلال ، والوقوف في وجه المطامع الانكليزية واذا قلنا الانكليزية فمعناها الواقعي حراسة الوطن القومي اليهودي ، ومراعاة الاقتصاد في موازنة الحكومة الى اقصى حد مستطاع . هذه غايات ثلاث كلها مهم . وكانت حكومة فلسطين ، وعليها هربرت صموئيل الصهيوني مندوبا ساميا ، قد ارتبطت رسميا مع الاردن بان تدفع له حصته من جمارك فلسطين ، وجعلت هذا حبالة صيد وصياد .

وانقلبت الاردن في وقت قليل الى شبه محشر ، اجتمعت فيه رجالات العرب من الاردن نفسه ومن فلسطين ولبنان وسوريا والعراق ، او قل امست عمان بعد انشاء هذه الحكومة « دمشق الصغرى » . ولكن حكومة طليع لم تستطع البقاء على العزة والكرامة غير بضعة اشهر ، ولا مجال هنا للاستطراد ، اذ غايتنا من هذا كله لا التاريخ نفسه ولا احصاء وقائعه ، بل اجمال قصة طليع ليسهل ربطها سنة ١٩٢٥ مع المفتي الحاج محمد امين الحسيني الربط الذي تتجلى به عمل هذين البطلين القوميين لثورة جبل العرب وسوريا ، مما لم يدون ولم ينشر قبل اليوم وقد مضى عليه خمسون سنة .

واعتقد ان التعارف الشخصي الاولي بين هذين

السيدين المفردين ، حصل في دمشق ايام كان طليع « مدير الداخلية » ، وقد تقدم ذكر هذا . ثم جعلت الصداقة بينهما تنمو للمصلحة القومية ، فلما جاء طليع من جبل العرب الى عمان في ربيع ١٩٢١ كانت ثورة يافا الاولى تتكور عاصفتها لتقع بعد اربعة اسابيع في اول ايار ١٩٢١ وقد بداها العمال اليهود « مستنفرين »انفسهم بسبب عيد العمال الاوربي ، وكان بطل الرد على صلف اليهود وتاديبهم الشيخ شاكر ابو كشك شيخ عربان « نهر العوجا » قرب يافا ، ودامت الثورة اسبوعين ، فذهب من العرب ٤٨ شهيدا و ٧٣ جريحا ومن اليهود ٤٧ قتيلا و ١٤٦ جريحا . ولما وقعت ثورة يافا هذه كان الحاج محمد امين الحسيني لا يزال مقيما في حمى العشائر العربية في الاردن ، وخاصة بني عطية .

اما طليع ، فبعد استقالته من حكومة الاردن في منتصف اب ١٩٢١ ، وقد وقع بينه وبين الانكليز في عمان والقدس من المجابهات العنيفة والتشاد الصارم مما يستحق ان يدون وينشر ولكن طبعا لا مجال له هنا ، راح يتنقل بكل حذر بين عمان والقدس ، وكان حاكم القدس في ذلك الوقت رجل اسمه مستر ستورز جاء مصر ١٩٠٥ من الاستانة وكان شبه مستشار شرقي في دار المندوب السامي ، يميل الى التمويه بالخزعبلات حتى كانه من اكبر دجاجلة الانكليز في الشرق وبقي في مصر الى الحرب العامة وذهب الى الملك حسين بن علي مرتين في اول الثورة وفي اثنائها وهو استاذ لورنس وتجمع بينهما البهلوانيات المختلفة . وانما نجتزىء بهذا من ايجاز ذكر ستورز حاكم القدس ، لانه هو كان مطلعا الاطلاع كله على ما كان يقع بين طليع والسلطة البريطانية في القدس وعمان من تجاذب الحبال والغوص في الرمال .

واما صلتي الشخصية بطليع فقد بدأت في دمشق ، وازدادت لما جاء عمان ، وبلغت حدها بعد ان استقال وجعل يقيم في فلسطين ، وهو يحذر الانكليز فكان ستورز يصطنع واهي الاسباب ليجعله يقيم خارج القدس ، وطليع من سعة صدره وبعد رؤيته ، لم يكن ليخرج هذا الحاكم الانكليزي مرة ، ولما قال له ستورز يوما : « يا سيدي رشيد بك ، اني فتشت لكم عن محل يناسب صحتكم فما وجدت لكم احسن من غزة ، فما رايكم يا سعادة البيك ؟ » فادرك طليع ان هذا امر بالانتقال الى غزة مفرغا بصيغة من ظاهر اللطف . فانتقل طليع الى غزة ، وبعد اسابيع كتب الى ستورز رسالة قال له فيها ان هواء غزة لم يناسب صحته فليختر له مكانا اخر . فجاء القدس وقابل ستورز فاختار له رام الله (تبعد ١٧ كلم للشمال من القدس) فاقام في رام الله مدة وفي كل يوم يهبط عليه جاسوس الحكومة فيرحب به طليع ويدعوه للغداء معه ، فينصرف الجاسوس وفي اليوم الثاني ياتي غيره وهكذا دوليك . وطبعا لا يذكر الجاسوس في تقريره ان طليع دعاه للغداء .

ثم انتقل طليع الى القاهرة وجعل محل اقامته فيها الى سنة ١٩٢٥ وكان بريده الى سماحة الحاج محمد امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى في الامور المتعلقة بالمصلحة العربية العامة ، لا راسا بل بواسطتي اذ كنت اعمل وقتها تحت يد الحسيني في المجلس ، ولدي الى اليوم في محفوظات اوراقي القديمة رسالة واحدة من طليع الى الحسيني احتفظ بها ذكرى لهذين الكبيرين اللذين كتب الله لي من التوفيق ان اعمل معهما عمل التلميذ او التابع لهما باحسان . وكان الحسيني بعد ان اصبح رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، مطلعا على كيفية معاملة ستورز لطليع .

الصلة الشخصية ، الطيبة الحلوة ، المتجردة من كل غاية الا خدمة الامة في عالي اغراضها بين سلطان باشا الاطرش ورشيد طليع ، قديمة العهد تعود بارومتها وجذورها الى سني ما قبل الحرب العامة الاولى لما كان طليع متصرفا على حوران . وسلطان الاطرش ، اطال الله بعمره مشعلا متلألئا من مشاعل العرب ، عربي مثالي في هذا العصر ، فقد جمع الى فروسية الميدان ، والحرب والطعان ، مكارم الخلاق لا تتردد في تشبيهها باخلاق العصر الاول ، الى صحة وجدان ، كانه قسطاس وميزان، لا يلتوي به ولو اجتمع عليه الثقلان . والده ذوقان الاطرش بعد ان استجاب الى منشور قائد الحملة التركية سنة ١٩١٠ بالتسليم وعليه وعلى امثاله الامان ، شنقه قائد الحملة ناقضا عهده معه ، وكان ابنه الفرند الفريد الصنديد سلطان وقتها في ريعان شبابه والبطولة تترقرق منه ملء جنانه واهابه ، فلما وقعت الحرب العامة الاولى كان سلطان يتحين الفرصة للانتقاض في جبل العرب ، ولما وصلت قوات فيصل بن الحسين سنة ١٩١٨ الى مشارف الشام والازرق ، كان سلطان اول مستقبليها والعمل معها بالسلاح والنار ، وكان بعد قليل على راس القوة التي دخلت دمشق في اوائل تشرين الاول ١٩١٨ وكان لسلطان باشا في دمشق يوم مشهور ، وكنا نود ايجازه ولكن لا مجال له في هذا الفصل .

وسبق لنا القول ان الثورة الاولى لسلطان كانت ١٩٢٢ انتصارا لعادات العرب وتقاليدهم الموروثة في حماية الضيف المستجير ، وهو ادهم خنجر الوطني اللبناني المناوىء للسلطة الفرنسية ، فاسرته السلطة واعتقلته وهو ضيف سلطان ومستجير به . والثورة الثانية هي الثورة

---

٥ والد الاستاذ سلامه ، ابو نايف علي عبيد من كبار رجالات هذه الثورة وابطالها الصناديد ، ومنزلته عند سلطان باشا منزلة عالية وبين ١٩٢٧ و ١٩٣٧ بعد نزوح المجاهدين الثوار الى الازرق ثم وادي السرحان حيث اقاموا عشر سنين كان ابو نايف رحمه الله يتردد على القدس وكان صديقا للحاج امين الحسيني .

(٢) كل ما يتعلق بطليع في اللاذقية واستقدامه الى دمشق قصه علي الشريقي نفسه وهو عندي مدون .

الكبرى فتقت ريحها في صيف ١٩٢٥ في جبل العرب ،وكان من امرها ما كان من بطولات فريدة ، وابادة عساكر بالالوف برمتها ، والهجوم على الدبابات بالفئوس وتحطيمها بمن فيها ، كأن الدبابة امام الفؤوس كومة من حطب .

والعلاقة بين الحسيني وسلطان اذا لم تكن قبل ١٩٢٥ واسعة المدى ريانة المشارب ، فمنذ فتقت ريح الثورة في جبل العرب في منتصف تموز ١٩٢٥ ، اخذت تنمو بسرعة لحمة وسدى بواسطة رشيد طليع ، وكنت انا في مصر في ذلك الوقت اراعي صدور الطبعة الاولى من « حاضر العالم الاسلامي » من « دار المطبعة السلفية » لصاحبها العلامة المصلح الاستاذ محب الدين الخطيب ، وكانت وصلت انباء الثورة الى طليع ، فاخذ بالاستعداد للانتقال الى القدس ، فسبقته الى فلسطين ووضعت بين يدي الحسيني المعلومات الشفوية المهمة التي كلفني طليع بها . واما مكاتبات طليع الى سلطان فكانت مطردة ، لا تنقطع وهي جد خاصة مكتومة ، لا يطلع عليها احد ، وكل موضوعاتها تتعلق باستيقاد نار الثورة عندما تسنح الفرصة لها . وكان اول النافرين الى ساحة الثورة من مصر الشهيد فؤاد سليم ، حيث كان في مصر منفيا من الاردن من السنة السابقة ١٩٢٤ وبعد ان مكث عندي في القدس ثلاثة ايام توجه الى الجبل متنكرا ، وبعد قليل وصل الى القدس طليع ، ورتب اموره قدر الامكان ترتيبا مستورا ، ليستطيع الاتصال الخفي بسلطان .

من هذه الساعة التي وصل فيها طليع الى القدس فصاعدا الى مدى نصف سنة او اكثر ، شاءت الاقدار العليا ان يكون هذان الرجلان في القدس هما الهيئتين بارادته تعالى ليكونا النافذة الوحيدة التي يمكن ان يطل منها بريد من الجبل وبريد الى الجبل ، ولولا هذا ، على ما ساوجز ، لكان للثورة ، مضايق وشدائد من المحتمل ان تلقى ذلك كله ، ولكن الله اذا اراد شيئا هيأ اسبابه .

وطليع لم يمكث في القدس غير بضعة اشهر حتى انتقل هو نفسه الى الجبل متعاونا مع سلطان وكان قد سبقه الى هناك الامير عادل ارسلان ، وكان طليع وهو في القدس ، ومعظم اقامته في البنسيون الذي اقيم انا فيه ، ولم اكن وقتها قد تأهلت ، يكتب الى احمد مريود الذي في العراق لينتقل الى جبل العرب ، والى صديقه الاول ابراهيم هنانو في حلب ليقوم بامور لا مجال لذكرها هنا . اما فؤاد سليم فاستشهد في حملة مجدل شمس اواخر ١٩٢٥ وجاء مريود من العراق واستشهد في ربيع ١٩٢٦ في القنيطرة واستشهد معه اخوه محمود في المعركة نفسها ، واما طليع فانه بقي في الجبل يتعاون مع سلطان بضعة اشهر وتوفي في قرية « اشبكي » اول صيف ١٩٢٦ واستشهد في هذه القافلة الاولى في بضعة اشهر مصطفى الاطرش اخو سلطان وهو من الابطال المعدودين . واما الامير عادل فانه بحمد الله داوم في معسكر سلطان وانتقل مع المجاهدين الى الازرق ثم الى «وادي السرحان » من اراضي المملكة العربية السعودية المتاخمة لسوريا فبقي الى ١٩٢٩ .

دور الحسيني وطليع : كان التعاون بين هذين الكبيرين في القدس لنصرة الثورة بما يمكن من الوسائل تعاونا عمليا تاما . واول مبادرة عملية كانت جمع التبرعات والاعانات المالية من الهيآت والافراد . واول رسول اختاره طليع ليذهب الى سلطان ببريد امانة هو الشيخ يوسف العيسمي المقيم وقتها في حيفا لاسباب خاصة (هو والد الاستاذ شبلي العيسمي) ولم تكن هناك طريق سيارات بين عمان والجبل ، وثاني رسول هيأه السيد الحسيني هو عبد الرحيم الطوبجي وكان ضابطا في الحرب العالمية الاولى . والرسول الثالث سعيد عمون المشهور السيرة الوطنية .

ورأى طليع ان يستجيش المهاجرين العرب في المهاجر ، وصدى معارك الثورة يطبق الافاق فكتبت بخط يدي من املائه علي لا اقل من ٤٠٠ رسالة الى المهاجرين وهيآتهم واحزابهم وجمعياتهم وافرادهم مع الرجاء ان يرسلوا تبرعاتهم الى القدس باسم سماحة الحاج محمد امين الحسيني ، وبعد مضي شهرين او ثلاثة جعلت تبرعات العرب المهاجرين تتوارد . ويسأل القارىء : وكيف كانت تدار الامور ؟ فاقول منذ وصول طليع الى القدس من مصر كما ذكرت ، كان هو البداية والنهاية في شؤون الثورة مع التفاهم العملي التام مع سماحة الحسيني ، ولا ننسى اننا ذكرنا ان طليع كان يعتبر هو رئيس حزب الاستقلال العربي ، وهذا الحزب من اولى صفاته الطاعة التامة بين الرئيس والمرؤوس ، والاخلاص للعقيدة كانه نذر مقدس . فلما انتقل طليع الى الجبل بعد بضعة اشهر ، حل محله في شؤون الثورة شكري القوتلي ، مع استمرار التعاون مع الحسيني . وسارت الحال على هذا المنوال سنتين او اكثر ، الى ان نزح المجاهدون الى « الازرق » من املاك المملكة الهاشمية وهو في البادية للشرق من عمان والجنوب من جبل العرب ، ثم الى وادي السرحان وهو الى الشرق الجنوبي من « الازرق » .

المعارك التي اتقدت من نار الثورة هي المعارك في الجبل نفسه او بجواره كالكفر والمسيفرة ، والمزرعة . ولما جعلت الثورة تمتد الى الاقاليم والغوطة وجبل الشيخ ومجدل شمس ، ودخل المجاهدون دمشق كانت المعارك تقع في هذه البقاع وتكون منها الاهوال . وهذه الثورة التي قام بها سلطان الاطرش سنة ١٩٢٥ واخرجت فرنسا من الجبل مدة تقرب من سنة ، هي القوة التي اجبرت فرنسا على ان تعقد مع سوريا تلك المعاهدة سنة ١٩٣٦ سنة عودة المجاهدين الثوار بعد هجرة عشر سنوات .

في اكتوبر ١٩٥٢ امست دمشق كالمقلى على النار وهبت ثائرة بعد ان ابصرت جثث الشهداء علقها الفرنسيون

تعليق المشانق في « ساحة المرجة » وانهار الفرنسيون فانسحبوا من المدينة وفي ١٨ اكتوبر ١٩٢٥ اخذالفرنسيون في قصف دمشق بالمدافع القصف المدمر مدة ٤٨ ساعة ثم زحف المصفحات ومن فوقها الطيارات وكل هذا نار وجهنم !! فسجلت فرنسا بذلك اقبح صفحة وحشية . وذهل العالم وقتها من هول هذا ، وكان سعد زغلول في ابان زعامته فاصدر منشورا يقول فيه لفرنسا ان اقل تكفير عن وحشيتك هذه ان تخرجي من البلاد في موكب حزين وعار .

بين المعركة الاولى من معارك سلطان في جبل العرب ، حيث اباد بضع مئات في ساعات وبين وحشية الاستعمار الفرنسي في دمشق في ١٨ اكتوبر ثلاثة اشهر وثلاثة ايام. وفي ثاني يوم الف المفتي الحاج محمد امين الحسيني في القدس « اللجنة المركزية لاعانة منكوبي سوريا » تحت رياسته وجعل اعضاءها من كبار القوم وامين صندوقها . وانما آثر هذا الاسم لهذه الهيئة لسعة معناه ، وبقيت هذه اللجنة المركزية في اخذ وعطاء مع المهاجرين عدة سنين وبات اسم سماحة الحسيني في المهاجر ملتمعا بالنور الوطني الى الوقت الحاضر . والخدمات التي قامت بها هذه « اللجنة المركزية لاعانة منكوبي سوريا » خدمات ثمينة ونحن هنا لسنا بصدد التفصيل وسنة ١٩٢٧ والمندوب السامي في فلسطين هو ثاني مندوب وهو الفيلد مارشال بلومر ، وقبله هربرت صموئيل الصهيوني نشبت الثورة في جبل العرب بعد رحيله عن فلسطين باسابيع . والمفوض السامي في سوريا ولبنان هنري بونسو . ففي هذا الوقت طلب الفيلدمارشال بلومر من المفتي ان تقدم اليه صورة عن موازنة « اللجنة المركزية لاعانة منكوبي سوريا » ليقدمها هو بدوره الى المفوض السامي الفرنسي اذ هذا طلبها منه بالحاح . فنظمت موازنة تمثل جميع الارقام المالية التي وردت من المهاجر بواسطة البنوك ولما كان كاتب هذه السطور يقوم باعمال سكرتيرية اللجنة تحت يد سماحة الرئيس ، فقد توليت بايعاز منه تنظيم تلك الموازنة وكانت، كما اذكر جيدا في حدود ٤٧ الف جنيه فلسطيني .

ملاحظات تاريخية عامة

١ ـ كان موقف حكومة فلسطين من الثورة الا يصل شرر منها الى فلسطين فيتحول هذا الشرر الى عدوى لعرب فلسطين .

٢ ـ وفي خريف ١٩٢٥ لما استولى الثوار على النواحي المتاخمة لشمال فلسطين كالمطلة وروشبينا ، والفوا حكومة برياسة زيد الاطرش ، قررت الوكالة اليهودية في القدس انشاء لجنة اسعاف طبية ولجنة تقديم مواد غذائية الى الثوار اذا دخلوا حدود المستعمرات اليهودية .

٣ ـ في خلال الثورة ، انقطعت الطريق على اهل جبل العرب بينهم وبين دمشق طبعا ، ولا طريق معبدة بين الجبل وشرق الاردن ، فلولا « اللجنة المركزية لاعانة منكوبي سوريا » في القدس لوقعت مضايقات وشدائد كما تقدمت الاشارة الى هذا . وتذمرت فرنسا شديدا من هذا ولكنها لم تستطع عرقلتها .

٤ ـ هجرة المجاهدين الى « الازرق » « ووادي السرحان » كانت عشر سنين . وقلنا ان الامير عادل بقي في معسكر المجاهدين في الازرق ووادي السرحان الى سنة ١٩٢٩ اذ اشتد عليه المرض فنقل الى القدس واجريت له جراحة طبية . واما سلطان باشا فانه بعد مدة انتقل الى الكرك من المملكة الاردنية واقام هناك الى حين العودة الى سوريا اول ١٩٣٧ بعيد عقد المعاهدة مع فرنسا .

٥ ـ في كتاب الاستاذ « سلامه عبيد » « الثورة السورية الكبرى » ١٩٧١ جداول احصائية كثيرة وفوائد جمة ، بوسع المطالع والدارس ان يستفيد منها .

٦ ـ لما نشبت الثورة في جبل العرب ١٩٢٥ كان الامير عبد الكريم الخطابي في ثورة الريف يجتاز ادواره الاخيرة فاضطر الى الاستسلام اوائل صيف ١٩٢٦ ثم نفي الى جزائر رينيون الى ١٩٢٦ .

٧ ـ سلطان باشا الاطرش القائد العام للثورة ، امد الله بعمره ، هو حلقة فريدة من رجالات الامة العربية ، ومع انه اخذ يقترب من التسعين فعزمه الفولاذي كأنه عزم الفارس ابن الاربعين . هو سيد جبل العرب في سوريا ، ورائد المجاهدين في هذا العصر .

٨ ـ لما تقرر ان يعود سلطان ورجاله والمجاهدون الى موطنهم في اول ١٩٣٧ بعد هجرة عشر سنوات كما تقدم ، اقيم له ولرجاله مهرجان تكريم قومي في عمان شهدته وفود من دمشق وبيروت وبغداد والقدس ومدن فلسطين كلها وحضر السيد الحسيني هذا المهرجان . وطبعا كان التكريم للبطولة العربي التي تجلت آياتها الباهرة في معارك الثورة بشخص سلطان ، كما كان المهرجان استصراخ الامة الى التماسك والتضامن بصد الاستعمار عن سوريا وتخليص فلسطين من براثن الوطن القومي . وكان المتكلمون في هذا المهرجان من جميع العواصم العربية وكانت قضية الاسكندرون وقتها هي وفلسطين الشغل الشاغل للعرب . فلما جاء دور الكلام الى احد الخطباء ، والكلام يوجه الى سلطان في الحفل العظيم ،قيل لسلطان : وهذا السيف الذي انتضيته بالامس وحررت به « جبل الدروز » ستنتضيه في الغد لتحرير الاسكندرون وفلسطين ، فهذا الجبل المنيف ما عاد اسمه جبل الدروز بل « جبل العرب » فهتف سلطان ولهتافه هتفت جماهير الحفل وفي ذلك اليوم ولد جبل العرب .

راس المتن ـ لبنان **عجاج نويهض**



بقلم محمد صالح مصطفى

قرية الورد قرية هادئة . الاطفال فيها يبتسمون . الورود تضحك . الناس في قرية الورد طيبون . الناس سعداء يأكلون من ارضهم . يذهبون الى الحقول في الصباح وفي حر الهجيرة يأكلون غداءهم البسيط . زيت وزعتر . وفي المساء يعودون متلهفين يتسامرون ويلعبون النرد .

ايامهم تمر متشابهة ولكن في ذلك اليوم حدث شيء غريب لم تألفه القرية بعد ، سمع اهل القرية ازيزا في الجو وشاهدوا كرة ضخمة لها اذرع فولاذية تدور حول قريتهم . الفلاحون في الحقول تركوا مناجلهم وتطلعوا الى السماء . النساء كفت عن العمل . الاطفال توقفوا عن اللعب والابتسام . الفلاحون تجمعوا في حقل ابو اللوز .

ـ انظر انها هناك ... لقد اختفت ... لم ارها .. انظروا .. انظروا انها ستهبط .. سترك يا رب .. لا تفزعوا صلوا على النبي .

جاء عبد الغفار راكضا كان شابا في العشرين جميل الطلعة كل فتيات الحي يتمنينه زوجا وهو يحب ابنة عمه « ناعسه » صاح : ماذا حدث ؟ لست ادري .. شيء ما يدور حول القرية .. كرة ضخمة يخرج منها اللهب تدور حولنا .. انه يوم القيامة .. اتقوا الله .

التفت الجمع الى الشيخ المقبل ـ يا شيخ اسماعيل لقد حط النحس على قريتنا .. وحدوا الله يا جماعة . وقف الشيخ مهيبا صامتا . صمتوا ... ارتجفوا خوفا راقبوا السماء . الآلة ما زالت تدور . الاطفال احسوا بالرهبة صمتوا لان الكبار صمتوا . تعلقوا باثواب امهاتهم . اقتربت الكرة رويدا . شاهدوا لها عيونا تخرج نارا احسوا بالحرارة الشديدة تلفحهم .

صاح عبد القادر .. انها تهبط في حقل الجابري .. انظروا ما هذا الذي يخرج من بطنها .

كانت الآلة تهبط بهدوء .. دائرية الشكل لها عينان تشعان نارا . وفوهة صغيرة تشفط الهواء الى الداخل . فرشت ظلها على الارض . فردت اذرعتها الفولاذية في كل اتجاه كالاخطبوط . بدات هذه الاذرع بالعمل بصمت وهدوء . حفرت في الارض تشبثت بها كالكلاليب . وقف الفلاحون ينظرون الى بعضهم . اتجهت عيونهم نحو الشيخ اسماعيل . تقدم الشيخ . تبعه الفلاحون نحو الآلة وداروا حولها . امسكوا بالاذرع الفولاذية . حاولوا تحريكهابلا فائدة . تركوها مستغربين . في المساء تحدثوا عنها في المضافة . ولم يعملوا شيئا . في الصباح خرجوا للحقول . توقفوا في منتصف الطريق كانت الآلة تمد ذراعها نحو حقل اخر وتغطيه فزع الفلاحون من هذا الامر حملوا فؤوسهم ومناجلهم وقرروا ان يقتلعوا الآلة . اقتربوا منها خائفين . مدت الآلة خراطيمها الفولاذيةاطلقت عليهم بخارا ازرق اللون . احسوا باختناق . تراجعوا .

ـ يا جماعة اتركوها وشأنها ... ولكنها اخذت ارضي .. سنعوضك عنها .. ولكن .. يا اخي انت ترى باننا لم نستطع عمل شيء .

ـ بل نستطيع . قالها الشاب بقوة . كيف ؟ سألوا مستغربين . ـ الم تروا الفوهة التي تشفط منها الهواء سنغلق هذه الفوهة .. من يجرؤ يا عبد الغفار . انا ، انت .. عبد الغفار ليس لي سواك يا ولدي .. ابي يجب ان نضحي ، يجب ان نقتلع الآلة والا اخذت حقولنا .. يا بني دع غيرك يفعلها ، انت وحيدي .. سأفتح الطريق لغيري يا ابي .

ـ يا شيخ اسماعيل الى اين انت ذاهب . لم يجب الشيخ كان يتقدم بعزم واصرار نحو الآلة . حاول رجال القرية ان يمنعوا الشيخ ولكن بلا فائدة . اخرجت الآلة خرطوما صغيرا قذفت منه النار تجاه الشيخ . تراجع قليلا . ثم تقدم . وصل الى الخرطوم . ضربه بقوة بفأسه ضربا ثم سقط . كان الخرطوم يلتف حوله ويضغط حتى سقط الشيخ . نظروا بحزن . وهربوا من النار .

في المساء وفي المضافة قال احدهم سنتخلص منها .. قل كيف سنتخلص منها احس بانقباض في صدري .. لا تتشاءم يا رجل ... اسمعتم .. اني اسمع صراخا . خرج الرجال فزعين . كانت اذرع جبارة تضرب البيوت . الاطفال ماتوا وساحت دماؤهم . الامهات صرخن بقوة . الخراطيم الصغيرة تبقر بطون النساء . الاذرع تلتف على الرجال الذين وقفوا يدافعون عن زوجاتهم .

هرب اهل القرية تحت جنح الظلام وكلهم يبكي على عزيز فقده . سمعت القرى الاخرى بخبر هذه الآلة . تألموا ولم يفعلوا شيئا . وفي تلك الليلة قام هرج ومرج في قرية الزهور فقد جاءهم اهل قرية الورد هاربين من الآلة . ورحبوا بهم وفتحوا لهم بيوتهم واقتسموا الارض والعمل معهم ، ولكن كان اهل قرية الورد ينظرون نحو قريتهم بحزن وحسرة وهم يرون الآلة تمد اذرعتها الفولاذية وتغطي القرية جميعها .

ثم مدت الآلة خرطومها الى قرية الزهور وغطت حقلا من حقولها . فزع الفلاحون تنبهوا الى ما سوف يحل بهم . قاموا بهجوم على الذراع الفولاذي . ولكن بدون جدوى .

قصة

ليلتي

قل لها ليلتي اسمعي هاتفا وافى فلن يمنع السهاد هتافا
لا ولن يحجب الظلام ضياءا شع في النفس بارقا واطافا
مثلما قد رفعت عن كاهل الرهق عبئا ارابه واخافا
حمل الشعر عنك عبء سهاد كنت تخشينه بهم مدافا
قل لها ليلتي اسمعي وسلي الفجر انتظارا فربما كان وافى

يا سنى الفجر لا عليك وهذي بين كفي تلمع الاضواء
يتتابعن حاملات لعيني من سناهن ما تمنى الرجاء
اين داجي السحاب ريعت نجوم الليل منه وراعت الظلماء
طردته وهو المكلكل شارات صغار يشع منها الضياء
يا سنى الفجر لا عليك وهذا شارق الحرف في الدجى وضاء

اتراني اطلت حتى قطعت الشوط لم التفت لسهد دليلي
اتراني رضيت من لامع الفجر بايماءة لغير نزول
(لمعت نارهم وقد عسعس الليل) فاقبلت دونما تطفيل
انا لم اسأل القرى غير اني شاقني ان اكون بين الرعيل
وسالت اليراع بعض حروف قال خذني تحية للخليل

بغداد — نعمان ماهر الكنعاني

نظروا الى الفوهة التي تشفط الهواء من يا ترى سوف يجرؤ ويغلقها ؟ كانوا ينظرون الى شباب القرية واحدا واحدا ، ولكن كلهم عزيز على اهله . رفضوا ان يقدموا ابناءهم .

— اين عبد الغفار ؟ لست ادري .. اريده ان يذهب الى القرى الاخرى ويجلب لنا رجالا ولكن اين ذهب ؟ اخشى ان .. اتقي الله يا رجل ، انه لن يفعلها .. اذن اين هو ؟ نظروا الى بعضهم متساءلين ، ثم نظروا الى الآلة وكأن ما سيحدث تجسد امامهم فاصابهم الفزع .

— هناك عند ذراع الآلة .. انه يمشي نحو الآلة .. عبد الغفار عد . انتصبت شابة جميلة — لن يعود . اذهب يا عبد الغفار ..

من ناعسة ؟

نعم ناعسة التي تحض خطيبها لان احدا منكم لم يجرؤ على الذهاب ، لم يجرؤ احدكم على وضع الغطاء على الفوهة فذهب هو .

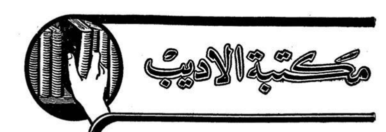
نظروا الى بعضهم . تدلت رؤوسهم .. احسوا بالذنب تجاه الشاب ، طأطأوا رؤوسهم انتفضوا فجأة . نظروا بحماس الى بعضهم . حملوا فؤوسهم ومناجلهم واتجهوا نحو الآلة بعزم . كان عبد الغفار يتقدم ببطء نحو الفوهة . اطلقت الآلة دخانا ازرق ثم احمر ثم برتقاليا ، ولكن عبد الغفار تقدم . كان يتقدم ببطء . وضع يده على فمه وانفه .

عطس بشدة . تقدم . اخرجت الآلة خرطوما . ابتعد عنه . وتقدم نحو الفوهة . النار تخرج من عين الآلة احس بالالم لم يبال . تقدم . لفه الضباب . المرئيات تلونت بالسواد . وصل الى الفوهة . ظلام شديد يحيط به . امسك بالغطاء . ضغط عليه الى اسفل . الغطاء بدأ يتحرك . الآلة تفتح فمها بعنف . الغطاء سقط على الفوهة اغلقها . الآلة تبتلع عبد الغفار . احس بدوار . فراغ هائل لا نهائي يحيط به . نقاط مضيئة تسبح حوله ، لم يعد يحس بشيء .

وصل الفلاحون . اقتربوا من الذراع الفولاذي تجمدوا . وكانت الآلة ما زالت تبلع الشاب . صرخت ناعسة بقوة . ركضت نحو الآلة وقبل ان تصل انفجرت الآلة . رأوها تتقلص على نفسها بالم وذعر وتضرب اذرعتها في كل اتجاه . تشنجت الاذرع الفولاذية وانكمشت على نفسها . تفجرت الآلة . لمع الاصرار في عيون الفلاحين . بريق مخيف يخرج من عيونهم . اتجهوا صفا واحدا نحو بقايا الآلة .

خرج الغرباء من الآلة وهم فزعون .. فروا في كل اتجاه . مناجل الفلاحين تحصدهم اختبأوا خلف بقايا الآلة . تجمدت الدموع في عيون الفلاحين . رفعوا مناجلهم وتقدموا . سقطت رؤوس الغرباء . وما زالت تسقط .

عمان – الاردن — محمد صالح مصطفى



على ضفـاف مجردة

مجموعة شعرية ـ فاضل خلف ـ تقديم عبد الستار احمد فراج ـ ١٨٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة حكومة الكويت

هذه مجموعة شعرية تغنى بها صاحبها على ضفاف نهر عربي ليس له في الادب اي ذكر لا في القديم ولا في الحديث ، ولربما جاء ذكره احيانا ولكن في غير ميادين الادب كما فعلت الحكومة التونسية عندما اخذت تحيي الاراضي البور الواقعة على ضفافه ودعت العملية (مشروع احياء اراضي وادي مجردة) .. فنهر مجردة اذن هو نهر مبارك ينبع من القمم الشماء في الجزائر الشماء ثم ينساب في تونس الخضراء حاملا الخير والبركة ، قبل ان يصل وهو في عز الشباب الى البحر الابيض المتوسط « فيتلاشى ويضيع عندئذ بين مياهه المالحة الصاخبة » .

هذا اذن هو نهر مجردة واما الشاعر الذي فتن بهذا النهر ،وفتن بالارض الجميلة التي يصفق فيها هذا النهر شاديا مسبحا بحمد ربه .. وفتن بالشعب الذي يحي على جنباته فهو الشاعر الكويتي فاضل خلف الذي منذ ان حل بالتراب التونسي وهو يطري تونس واهلها وتاريخها وطبيعتها شعرا ونثرا ، وبعواطف صادقة واخلاص منقطع النظير . ولا يمكن لاي شاعر ان تنقاد اليه القوافي والمعاني وبهذه السلالة والرقة ، التي نجدها في ديوان على ضفاف مجردة الا ويكون الاخلاص رائده في كل حرف يخطه وكل كلمة تخرج من اعماقه وكل بيت يتهادى من اعماق قلبه .

لقد تصفحت الديوان فوجدت الاخلاص يفوح شذاه بين صفحاته والصدق يتوهج نورا بين سطوره .. والحب ينبض مشرقا متلالئا في رحابه الرحيبة . فمسكت القلم لكي اقول رأيي فيه .. ولكنني احجمت لاول وهلة . فالديوان لا يضم فقط القصائد التي نظمها الشاعر في تونس فقط ، بل هناك قصائد في الكويت وفي بعض البلدان العربية وفي الاندلس وفي بعض الشعراء وابطال التاريخ ، الى جانب قصائد في الانسان والقمر والمجتمع والطبيعة . فمن اي هذه الامور اتحدث يا ترى؟ ان كل جدول من هذه الجداول الشادية تدعو الكاتب ان يمد اليها اليد .. ويفتح لها الفؤاد .. وبعد ان طال احجامي .. واطلت التفكير في امري .. رايت ان اقتصر على موضوع واحد .. لكيلاتتشعب بي السبل فتتقطع بي الاسباب واخرج في النهاية بدون ان اعطي كل جدول حقه من الرعاية فساقتصر اذن على القصائد التي نظمها الشاعر في تونس ونهر مجردة .. واما القصائد الاخرى فلن تعدم في دنيا الادب من يجلو عن وجهها النقاب فتبدو كما شاءت وكما شاء لها الشاعر وكما يشاء لها القراء من عز وسمو وسؤدد .

قلنا منذ قليل ان نهر مجردة لم يتغن به الشعراء العرب كما هو الحال مع الانهار العربية المعروفة.. كالنيل والفرات ودجلة وبردى .. حيث ان هذه الانهار اخذت نصيبها الاوفر من الذكر الخالد والصيت الذائع .. بعد ان تغنى بها شعراء العرب في كل مكان .. واصبحت مصادر خصبة للغناء العربي كذلك ، اذ ان كثيرا من قصائد الشعراء التي خلدت هذه الانهار ..اصبحت في نفس الوقت اغاني يصدح بها اشهر المغنين في العالمالعربي .. اما مجردة .. هذا النهر التونسي فتقول عنه جريدة الصباح التونسية عندما نشرت قصيدة « نهر مجردة » لاول مرة في الجريدة :

« حرص الصديق الشاعر الكويتي فاضل خلف نزيل تونس على تخليد نهر مجردة التونسي مثلما خلد الشعر في المشرق العربي نهر النيل ونهر دجلة ونهر الفرات ونهر بردى، وقد اعرب عن ذلك في كثير من المناسبات حتى انه اطلق على ديوانه عنوان « على ضفاف مجردة »باعتبار ان هذا النهر يبعث الحياة فيما حوله ، مما جعل الحكومة التونسية تقوم باستغلال مياهه لخير البلاد ، فاسست ديوان احياء اراضي وادي مجردة » .

ان في هذا الديوان قصائد بكاملها تمجد تونس ارضا وشعبا كفاحا وبطولة وهي « تونس الخضراء » و «على ضفاف مجردة » و « الفجر الجديد » و « نهر مجردة » وهناك قصائد اغتنم فيها الشاعر مناسبة من المناسبات فراح يتغنى بارضها الخضراء ..كاحسن ما يكون الغناء وهي « الورقات التونسية » وهي قصيدة نظمها والقاها الشاعر بمناسبة صدور كتاب « ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية » للعلامة حسن حسني عبد الوهاب ، وذلك في الحفل الذي اقامته وزارة الثقافة بنادي ابي القاسم الشابي بضاحية الوردية من احواز تونس الجنوبية . وقصيدة خفقاتقلب .. نظمها الشاعر بمناسبة مرور ثلاثين سنة على وفاة الشاعر التونسي الخالد ابي القاسم الشابي .. وكانت تونس قد اقامت مهرجانا مشهودا للشابي في عام ١٩٦٦ على المستوى العالمي حضرته وفود من الاقطار العربية الشقيقة وبعض الدول الصديقة .. وهناك قصيدة « هدية » وهي قصيدة نظمها الشاعر جوابا على قصيدة الشاعر التونسي محمد مزهود القيرواني .. يحي بها الشاعر الكويتي بعد ان اهداه مجموعة من مجلة البيان الكويتية ويقول فيها :

فارض تونس قد هام الفؤاد بها … هيام صب صريح الخرد الوطف
قضيت فيها من الاعوام اربعة … الذي منها بدنيا الشعر لم اصف
بها تفتح شعري زاهيا غردا … وعشت فيها من الامجاد في كنف
وزدت فيها حنينا غير منقطع … الى الكويت وحبا غير مختلف

وهناك ايضا قصيدة « شوق وذوق » نظمها الشاعر بمناسبة صدور ديوان الشاعر التونسي مصطفى خريف بهذا الاسم .

اما قصيدة الورقات التونسية فقد نوه بها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب قبل رحيله عن هذه الحياة وذلك في مجلة الاديب اللبنانية حيث قال :

« من اجمل ذكريات حياتي عشية يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩٦٥ فقد تفضل اصدقائي واحبابي في نادي ابي القاسم الشابي بالوردية بالاحتفاء بظهور الكتاب الثامن والعشرين من مؤلفاتي وهو « ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية » وفي مقدمة هؤلاء الاخلاء الشاعر العربي الفريد فاضل خلف حفظ الله تعالى طلعته وصان رعايته . وقد شاء ان يزيد ما بيننا من الوداد المتين فانشد قصيدا فريدا ، اعربفيه عن شعوره الرقيق وولائه للعروبة عموما ولتونس خاصة .. ذلك البلد الذي احبه ويحبه ، فشنف بانشاده الاسماع ، وانعم الحاضرين بامتاع واي امتاع ، فجزاه الله عن المودة احسن ما يجازي به الاحباء آمين » .

وقصيدة الورقات التونسية ، قصيدة سكب فيها الشاعرمن عصارة قلبه وسبحات وجدانه ، وومضات روحه دفقات تمج بالصدق والاخلاص فهو الى جانب العواطف السامية التي ابداها تجاه صديقه الصدوق صاحب الكتاب .. فهناك ابيات مشرقة الضياء ، صادقة الجرس تجاه تونس ... فتتحول القصيدة من قصيدة مناسبات الى قصيدة فن

وجمال ، وهكذا الشعراء الصادقون .. فهم يخترقون اجواء المناسبة ... الى اجواء شاعرية تحلق فيها النفس الى ذروة النشوة .. وتسمو بها الروح الى اوج البهجة والحبور .. فاذا القصيدة تصبح بيدهم قطعة من الفن .. وفيضا من الشعر ..فلنستمع الى الشاعر وهو يتغنى بتونس :

وروابي تونس من قدم — موطن المجد وسر العبقرية
نبغ الفكر بها مزدهرا — ثم اهدى من سناه البشرية
هذه الاربع كانت قبسا — فسلوها عن عصور ذهبية
اسالوها عن زمان مشرق — وهب العالم آلاء سنية

والشاعر فاضل خلف يغتنم كل فرصة لتمجيد التاريخ العربي المشرق المعطر بمآثر الاسلام ، فعندما اتيحت له الفرصة في قصيدة الورقات التونسية .. اغتنم هذه الفرصة ، لكي يروي غليله من تمجيد بطولات تونس العربية التي حمل لواءها الفاتحون الاوائل بقيادة عقبة بن نافع وهم يحملون رايات الاسلام المظفرة .. ناشرين الهداية والنور في اقطار المعمورة .. ولا يمكن ان تكون ربوع تونس قبسا الا بالعروبة والاسلام .. فهو يتغنى بمآثر اولئك الابطال الذين جاؤوا هذه الربوع بالخير والبركة والمجد والبطولة حيث يقول :

اسلوا عن عقبة الفتح وعن — فتية اهل آباء وحمية
اقبلوا من مطلع النور فهم — رسل الامجاد من ارض زكية
اسسوا في كل ركن محفلا — لبطولات وامجاد ثرية
صور في القيروان ازدهرت — ثم شعت في الاقاليم القصية
مهدت للمجد حتى بزغت — في رحاب الافق شمس القاطمية
دولة يفتخر الفكر بها — في مجال الفخر والذكرى الزكية
دولة في مغرب الارض لها — ذكريات عاطرات سرمدية
ولها في مشرق الارض صدى — صادح الجرس بمجد العلوية
انها الهدية الشماء لم — تلك الا مصدرا للمدنية

اما الصور التي ازدهرت في القيروان فهي دولة بني الاغلب .. التي اسلمت الراية العربية الى الفاطميين .. وهو وان لم يذكرها هنا في هذه القصيدة بالاسم فلم يهملها في قصيدة اخرى عنوانها تونس الخضراء حيث قرن ذكرها بذكر عقبة عندما قال :

وعقبة الفتح خفاق اللواء بها — اذ كان فيها مثال المصلح الباني
واغلب في جبين الدهر لؤلؤة — بالقيروان لهم رايات عرفان

وفي الواقع ان عقبة هو الذي اسس القيروان وانشا مسجدها الجامع الذي ما يزال حتى يوم الناس هذا آية من آيات الفن المعماري ... وما يزال حتى يومنا هذا مفخرة من مفاخر عقبة والذين معه من المؤمنين الذين عمروه ليكون نورا يهتدى به في الظلمات .. وهو مأثرة من مآثر العروبة في شمال افريقيا .. وسيبقى الى قيام الساعة قلعة من قلاع الاسلام .. ومصدرا مشعا من مصادر القوة والايمان ..ثم جاءت الدولة الاغلبية فاصبحت القيروان درة في تاج الدولة العربية ومنارة مضيئة في ثغور الاسلام ، والاغالبة هم الذين وحدوا افريقية وهي تونس وما جاورها من بلاد الجزائر وليبيا .. وهم الذين فتحوا صقلية بقيادة اسد بن الفرات ، قاضي القيروان .. وهناك دلائل تشير الى ان الاغالبة غزوا الاراضي الايطالية ودخلوا روما ، في عام ٢٣٢ هجرية ولكن المقاومة العنيفة التي تعرض لها الفاتحون من قبل جيوش اوربا اضطرتهم الى الرجوع الى ميناء سوسة الحربي حيث خرجت الجيوش العربية لفتح روما .

وهنا يعيد التاريخ نفسه بعد مائة عام مذكرا باقدام عبد الرحمن الغافقي الذي توغل في اوربا عن طريق الاندلس فتالبت عليه جيوش اوربا مجتمعة فتوقف زحفه واستشهد في بلاط الشهداء بالقرب من باريس عاصمة فرنسا . وكانت الدولة الاغلبية تعترف بالسيادة لمركز الخلافة العباسية في بغداد .. كما كانت الحال مع الاندلس حتى ايام عبد الرحمن الناصر .

ويذكر الشاعر فاضل خلف القيروان في قصيدة « هدية » بقوله

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٨ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ١٠٠ ل.ل.

في الخارج العربي : ٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
١٠٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في سائر الاقطار : ٢٠ دولارا بالبريد العادي
٥٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار :

في لبنان وسورية : ٥٠ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج ١٠٠ ل.ل. او ٥٠ دولارا كحد ادنى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

الادارة : ٢٢٣٨١٩ — Dir : 223819
المنزل : ٢٢٥١٣٩ — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

« القيروان منار العز والشرف » .

وعندما ذكر الشاعر البطل الفاتح عقبة بن نافع في قصيدة « الورقات » لم ينس الابطال الفاتحين الذين سبقوا عقبة الى ربوع تونس ، او افريقيا كما كانت تدعى في ذلك الزمان .. فهو يحييهم في قصيدة تونس الخضراء بقوله :

وللعبادل صيت في مدائنها   وقد غدا ذكرهم في كل ميدان

والعبادل هم سبعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ضمن الجند الاسلامي الفاتح وهم : عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو بن العاص .

وفي قصيدة تونس الخضراء يشيد الشاعر بالدولة الفاطمية بقوله :

وتلك مهدية الامجاد شاهدة   للفاطميين من ابناء عدنان
قد شيدوا دولة شماء سامقة   بها تغنت دمشق بعد بغدان

والدولة الفاطمية التي تلقنت الراية العربية من الدولة الاغلبية ، حملت هذه الراية خفاقة فوق الذرى ، مرفرفة لا في شمال افريقيا فقط وعاصمتها الجديدة « المهدية » بل تجاوزتها الى المشرق العربي عندما هاجر المعز لدين الله الى مصر .. ومن مصر نشر رايته في الشام والحجاز وشواطىء الخليج العربي .

فالشاعر اذن يتغنى في شعره عند الحديث عن تونس .. بالفاتحين الاولين وعلى راسهم العبادلة السبعة .. ويتغنى بعقبة باني القيروان ومنشيء مسجدها العظيم ويتغنى بالاغالبة الغالبين .. ويتغنى بالفاطميين الميامين .. وهكذا مجد الشاعر تونس وكل من اسهم في امجادها العربية الاسلامية في الماضي والحاضر .

اما تمجيد الشاعر للتونسيين الاوائل فقد اتينا على ذكره .. وبقي ان نساير الشاعر في رحلته الميمونة في تونس الخضراء ونطلع على مشاعره نحو التونسيين في هذا العصر .. عصر الكفاح ضد الغزاة الاوربيين .. وكيف صمد الشعب طويلا امام قسوتهم وتحديهم السافر للوطنيين ، وكيف قاوم الشعب ضرباتهم المتتالية لتمزيق البلاد وتشتيت العباد .

احتلت فرنسا تونس بحجة حماية بعض رعاياها وفرضت على الملك محمد الصادق معاهدة الحماية في ١٢ ماي ١٨٨١ ، وكانت قد احتلت الجزائر قبل ذلك بخمسين سنة .. ثم احتلت المغرب بعد ذلك فاصبح الشمال الافريقي من حدود ليبيا الى المحيط الاطلسي مستعمرة فرنسية تحكم بالنار والحديد ، وليس لابناء البلاد الا الذل والظلم والاستعباد ، ومنذ ان وطئت فرنسا تراب تونس .. والشعب في معارك مستمرة تارة في الجهر وتارة في السر . فمن اشتباكات مسلحة الى حرب عصابات ومن تحد سافر الى اقلاق راحة المحتلين في تونس وفي المنفى ثم في المحافل الدولية وكانت قوافل الشهداء تاخذ مكانها اللائق في صفحات التاريخ الى ان توج كفاح الشعب بالنصر المبين فاعلنت الجمهورية في ٢٥ يوليه من عام ١٩٥٧ .. وكانت اقلام الادباء وقرائح الشعراء تصلي الغزاة بحممها اللاهبة ، مساندة الكفاح والمكافحين فالتقى السلاح والقلم على صعيد واحد .. وتعانق الحبر والدم في دروب الجهاد .

وجاء الشاعر فاضل خلف .. الشاعر الذي كان يتتبع كفاح تونس ضد الغزاة وخاصة الصفحة الاخيرة منه حيث كانت الصحافة والاذاعات العالمية ، تحمل انباء الجهاد والمجاهدين الى كل جزء من اجزاء الوطن العربي ..

وجاء الشاعر بعد الاستقلال بخمسة اعوام في عام ١٩٦٢ ، فراى عن كثب المرابع التي كانت مسرحا للملاحم وميدانا لصراع طويل بين شعب اعزل ومستعمر لا يرحم .. وكان مجيئه في نفس العام الذي سكتت فيه المدافع الهادرة في الجزائر المناضلة ، بفوز الشعب الجزائري الظافر على الغزاة بعد مائة وثلاثين سنة من القتال المرير .. فاصبح الشمال الافريقي كله حرا طليقا ترفرف عليه راية العروبة ... والاسلام .

وياتي الشاعر الى تونس فلا غزاة ولا مغيرون .. ولكن فيها حرية واستقلال وحب ووئام فيصدح في قصيدته تونس الخضراء :

واهل تونس اهلي سوف اذكرهم   مدى الحياة باشواق وتحنان
هم الرجال اذا ناداهم وطن   عند المصاعب او في رد عدوان
سلوا المغير فقد اودى الزمان به   لا بالكلام ولكن بالدم القاني
دماء حشاد والاحرار اخوته   قد خضبت ترب بنزرت وزغوان

ويصدح في قصيدة « خفقات قلب » وهي القصيدة التي نظمها الشاعر عن ابي القاسم الشابي :

في شعره الوطني للاحرار   ومضى سنا ونور
نادى بكسر القيد لم   يعبأ بشر مستطير
شر تحدى في المرا   بع كل حر مستنير
يصبو لتحرير البلاد   من المفاسد والشرور
يصبو لنشر الحب والآلاء   والخير الوفير
يصبو لبعث الشعب من   رقداته خلف الستور
فالاجنبي بارضه   نشوان يرفل في السرور
ويتيه في الخضراء بين   مرابع زهور ودور
يطا المرابع غاصبا   ويعيش تيها في القصور
هل يسكت الشعر الجريح   على المصائب والثبور
هل يسكت الشابي وهو   لسان موطنه الصبور
هل يسكت الشادي المفرد   عن ملمات المغير
كلا فما خلق المفرد   السكوت على النكير
فرسالة الشعراء يذكي   قدسها صدق الشعور
والصدق عند الشاعر المطبوع   من وحي الضمير

وفي قصيدة « نهر مجردة » يخاطب تونس ويمجد كفاحها في نصرة الجزائر ويستنهض هممها .. لرد غزاة من نوع اخر .. غزاة لم يعرف العرب مثلهم في الشر والقسوة وموت الضمائر .. غزاة تساندهم كل قوى البغث في العالم .. غزاة اتوا من كل حدب وصوب لاغتصاب ارض عربية مقدسة فتم لهم ما يريدون ولكن بحراب كل اعداء الامة العربية في هذا العالم العجيب .. فسقطت فلسطين في فترة ضعف العرب . ثم توالت الغارات على الاقطار العربية المجاورة لفلسطين حتى اصبح العدو الصهيوني يمتلك ارضا عربية شاسعة تكاد تكون من النيل الى الفرات . يقول الشاعر في هذه القصيدة :

اتونس ان غنيت مجردة فقد   اعادت شبابي بعد ان جاوز المدى
اتونس ان مجدت نهرك انما   امجد فيك الاريحية والندى
فانك دار للمكارم والقرى   تغنى بك التاريخ والشعر غردا
وانت ملاذ الحر ان جار دهره   يروح ويغدو في حماك مؤيدا
تعهدت ابطال الجزائر في الوغى   فما ارهبتك النازلات ولا الردى
وساقية الاحرار قد روت الثرى   دماء سيبقى وقدها متجددا
فهل لك في نصر جديد محجل   يضيف الى ماضيك صرحا ممردا
فلسطين قد حل البلاء بساحتها   يحاربها الاهلون والدهر والعدى
فلست ارى الا ديارا سليبة   يدنسها الباغي وشعبا مشردا
وهذا اوان البذل يا ابنة عقبة   فمدى اليه من بطولتك اليدا
وقولي لقاء اليوم في ارض تونس   وفي مهرجان القدس موعدنا غدا

وساقية الاحرار هذه التي ذكر الشاعر هنا هي ساقية سيدي يوسف وهي قرية تونسية تقع على الحدود الجزائرية احتمى بهـا المجاهدون الجزائريون عندما طاردتهم دورية فرنسية في عام ١٩٥٩ .. فثارت ثائرة المستعمرين وقصفوا القرية برا وجوا . فاصبحت قاعا صفصفا واستشهد من جراء ذلك المجاهدون الجزائريون وعدد كبير من المواطنين التونسيين فامتزج الدم التونسي والجزائري على دروب الكفاح

والنضال ضد الغزاة الظالمين .

وقد نظمت هذه القصيدة بمناسبة انعقاد مؤتمر ادباء العرب العاشر في تونس في شهر مارس من عام ١٩٧٣ .. اي قبل حرب رمضان ... هذه الحرب المباركة التي اعادت لنا الثقة في انفسنا .. وان شاء الله تتحقق نبؤة الشاعر فيعقد ادباء العرب مهرجانهم القادم في القدس .. فتكون حرب رمضان فاتحة لتحرير فلسطين من الغزاة الصهاينة كل فلسطين ، كما كانت حرب حطين فاتحة لتحرير فلسطين كل فلسطين من الغزاة الصليبيين في العصور الوسطى .

ونمضي مع الشاعر على دروب النضال فتطالعنا قصيدة « الفجر الجديد » وهي القصيدة التي نظمها الشاعر في مدينة بنزرت المكافحة ومعركتها الخالدة .. بنزرت التي دخلت تاريخ الجهاد من اوسع الابواب .. اذ قدمت في يومين او ثلاثة اكثر من عشرة الاف شهيد تونسي عندما قصفتها قوات الاستعمار في صيف ١٩٦١ برا وبحرا وجوا بدون هوادة .. وتشاء الاقدار ان تكون نهاية كفاح بنزرت كبدايتها فقبل هذه المعركة الاخيرة بثمانين عاما اي في ١٨٨١ انزلت فرنسا في مدينة بنزرت ثمانية الاف جندي بكامل عدتهم بقيادة الجنرال بريار الى جانب قوات اخرى عن طريق الجزائر .. واتجهت القوتان نحو العاصمة .. فكان الاحتلال واي احتلال .

وبعد معركة بنزرت الاخيرة بعامين تقريبا احتفلت تونس بخروج اخر جندي فرنسي عن هذه المدينة الباسلة بحضور عدة رؤساء عرب كان في مقدمتهم الرئيس الحبيب بورقيبة والرئيس الراحل جمال عبد الناصر والرئيس احمد بن بلا .. وقد مثل الكويت في هذا المهرجان الخالد الشيخ عبد الله الجابر الصباح . وهناك القى الشاعر تحيته الجميلة لبنزرت .. وتونس .. وللكفاح امام الحشود العربية الهادرة .

رددي بنزرت الحسان الخلود
واصدحي بالنغم العذب الفريد
واملئي الدنيا اهازيج السعود
واجعلي المجد شعارا
ودليلا ومنارا
واعيدي ذكر ماضيك السعيد
فلقد اشرق في الكون وسارا

يا دم الاحرار في الافق الرحيب
هذه بنزرت في ثوب قشيب
تسبح الانوار من بعد اللهيب
في سماها وربـاهـا
وعلى رحب مداها
تخفق الاعلام في فخر عجيب
بعد ان ازرت بأعلام عداها

ايه يا بنزرت يا بنت العروبة
سجلت ارضك ماساة رهيبة
فغدت للسلم انغاما طروبة
فدماء الشهداء
ودموع الابرياء
قصة الهبت النفس الوثوبة
فاتت بالنصر وضاح السناء

يا ثرى تونس قد ولى الظلام
واتى الفجر الجديد المستهام
في ثناياه رخاء وسلام
وربيع وشباب
والاماني العذاب
فربما الخضراء حب ووئام
وهي للامجاد والفخر ركاب

ونتابع رحلتنا الادبية في رياض الشعر الفناء .. في ديوان على « ضفاف مجردة » للشاعر الكويتي فاضل خلف لكي نستقبل لونا جديدا من المواطف الصادقة والمشاعر السامية .. فبعد ان تحدثنا عن شعور الشاعر تجاه تونس من الوجهة الملحمية التاريخية ثم من الناحية البطولية والكفاح في الزمن الحديث نتجه الان الى مروج اخرى توغل فيها الشاعر بكل اخلاص وصدق وسجل فيها احلى كلماته الشعرية .. وما هي الا حبه الخاص لتونس ارضا وطبيعة وشعبا ، ففي مقدمة قصيدته « خفقات قلب » وهي عن ابي القاسم الشابي .. رسم صورة شعرية عن تونس قلما قرات مثيلا لها في حياتي الادبية وهذه الصورة لا يدرك حقيقتها الا من جاب التراب التونسي من اقصاه الى اقصاه فسكان العاصمة مثلا والمدن الساحلية ومدن الوسط لا يعرفون الثلوج والينابيع والجبال وسكان الشمال لا يعرفون البحر واصطفاق الامواج .

اما الشاعر فقد زار كل جزء من الاراضي التونسية فسجلت ريشته صورة لتونس بكل ما فيها من جمال وبهاء .. وكانت هذه الريشة صادقة في تسجيلها .. صادقة في تصويرها ، فلنستمع اليه وهو يشدو :

في تونس الخضراء بين الحسن والماء النمير
حيث الطبيعة تزدهي وتجود بالفن الوقور
حيث الجداول ترسل النغمات الناء الخرير
حيث الجبال الراسيات تتيه بالثلج الغزير
حيث الازاهر تملأ الرحب المضمخ بالعبير

حيث المروج تلالات كالنجم كالبدر المنير
حيث اصطفاق الماء في الشطآن او بين الصخور
حيث البلابل غردت عند الاصائل والبكور
حيث النسائم تنعش الارواح في الدوح النضير
حيث الروابي الخضر ابهجت النفوس مدى الدهور
حيث المياه تدفقت في السهل في الوادي الخضير
حيث الجمال موزع ريان بالسحر المثير

فهذه الصورة المشرقة للطبيعة التونسية .. وهذه التحية الصادقة لهذه الارض الخضراء ، وهذه السبحات الوجدانية في الادواح الغناء .. جاءت نتيجة لتوله الشاعر في الطبيعة . ولا عجب فالشعراء هم اكثر الناس هياما بالطبيعة . فالبحار تحرك في نفوسهم الانغام والجبال تهز في اعماقهم الحان الانشاد والمروج تهيج في جوانحهم الشعر ، والجداول والينابيع والانهار تلهمهم كل بديع من القول وجميل من الكلام . والشاعر الصادق تراه يهيم بالطبيعة ، ويغتنم الفرص بعد عناء العمل .. اي عمل .. لكي يلقي بنفسه في احضانها سارحا في جنباتها متأملا عجائبهاغارقا في لججها ، لكي يرتوي من منبعها العذب ، فترتاح نفسه العطشى بعد عناء الحياة اليومية ... فتكون هذه التاملات بعد ذلك شعرا يتدفق من اعماقه .. فيكون له صدى جميل في النفوس .. نفوس الاخرين الذين لا تسمح لهم ظروفهم المعيشية للهيام في الطبيعة كما يفعل الشاعر .. ولكنهم عندما يقراون آثار الشاعر ترتاح نفوسهم المتعبة .. وكانهم هم الذين عاشوا تلك اللحظات الجميلة مع الطبيعة الساحرة ..

والشاعر فاضل خلف عشق الطبيعة التونسية فباحت له باسرارها ، وبادلته العشق فاخذ يتغنى بها .. فهو يقول في قصيدة « تونس الخضراء » :

فيها الطبيعة قد غنت مزاهرها   فاطربت بغناها كل فنان
والروح تسبح في اجوائها طربا   كانها بعثت في عالم ثان

ويقول في قصيدة « نهر مجردة » :

تنزل على الخضراء درا وعسجدا   وزدها على الايام عزا وسؤددا
وعطر ثراها من معينك بالشذا   فقد طبت في الآفاق نبعا وموردا
وصفق مع الشادين في كل منحنى   وحي جموع الهازجين مزغردا
وردد مع الاطيار في الدوح شدوها   ورجع حفيف الغاب لحنا مجددا

ويقول في قصيدة « على ضفاف مجردة » مخاطبا تونس :

اتونس يا ربة المزهر   وباعثة النور في الاعصر
نشرت المحبة بين القرى   واهديت للعالم الاكبر
فارضك مهد الجمال الرطيب   وجوك جو السنا المقمر
وافقك للنور مستودع   يوزع من فيضه المطر
فمن ضفة النهر وحي سرى   بروحي . ولولاه لم اشعر
اتونس ان نشيد الضفاف   تهادى من المنبع الاطهر

وندرك من هذه المختارات ومن ثلاث قصائد مختلفة ، مدى تأثير الطبيعة التونسية على نفسية الشاعر ومدى تأثيرها على شاعريته، ولولا ضيق المجال لاوردنا شواهد اخرى على شغف الشاعر بالطبيعة ، وتأثره بفيضها الدافق ، وارتوائه من منابعها العذبة ، حتى فاضتنفسه بما فاضت به من حب وعواطف سامية واحاسيس صادقة وفن شعري جميل سيبقى على المدى شاهدا على صدق الشاعر في فنه الذي استقاه من اللوحات الفنية الرائعة في ادواح الطبيعة الغناء .

لقد تحدثنا حتى الان عن عواطف الشاعر الصادقة نحو الارض التونسية في تاريخها العربي المجيد ثم تحدثنا عن شعوره الفياض تجاه الكفاح التونسي ضد الغزاة الذين رحلوا دون رجعة الى اوكارهم ... ثم تحدثنا عن ولع الشاعر بالطبيعة التونسية .. والارض التونسية .. والشعب التونسي .. فلم يبق لدينا شيء نقوله اتماما لهذا الحديث الا التنويه باحاسيس تونس تجاه الشاعر .. وذكر العواطف المتبادلة بين هذا الشاعر المعطاء .. وبين تونس الخضراء ، وقد جاءت هذه العواطف السامية عن تونس بواسطة قلم التحرير في جريدة الصباح ، حيث قالت :

« فاضل خلف اديب من ادباء الكويت اللامعين ، ووجه من الوجوه المشرقة لذلك البلد الشقيق ما عرفنا فيه الا السماحة والشهامة واللياقة والدبلوماسية الطاهرة والعروبة الصادقة طيلة اقامته بتونس،يفصح بشمائله وبمساعيه لتحقيق اللحمة الاخوية بين الكويت وتونس بقلمه ونشاطه وتصرفاته ، حتى اصبح محبوبا لدى كل تونسي ، وكوكبا ساطعا في محافل الفكر بالجمهورية التونسية » .

وتقول جريدة الصباح كذلك عند صدور هذا الديوان :

« صدر اخيرا في الكويت ديوان على ضفاف مجردة ، وهو اول مجموعة شعرية تطبع لصديقنا الشاعر الكويتي البارع فاضل خلف ويضم هذا الديوان عددا من القصائد التي انتجها الشاعر بتونس خلال اقامته الطويلة بها سجل فيها امجاد تونس الوطنية واعلامها ورجال الفكر والعلم ، ومساهمته في المهرجانات الثقافية التي انتظمت بتونس وتغنى بنهرها « نهر مجردة » الذي اختار ان يكون عنوان ديوانه » .

وفعلا لقد كان انتاج الاستاذ فاضل خلف بتونس اغزر انتاج في حياته الادبية ، ولا غرو ان يتغنى الشاعر الصديق بتونس وان تتفتق قريحته عن هذه القصائد الحسان ، فهو قد احب تونس واحبته وتعرفت من خلال ادبه على الكويت كاصدق وابلغ ما يكون التعرف والاكبار للدولة الشقيقة والحبيبة ، لقد عمل جاهدا على ربط الصلات الروحية بين البلدين وامتزج بالاوساط التونسية الثقافية والشعبية فكان لذلك اثر كبير في اشراق وجه الكويت ببلادنا ، وكان هذا الصديق همزة الوصل ورسول التآخي بين الشعبين الشقيقين .

ولعل من عوامل نجاح الرجل الدبلوماسي ان يتوفر له حظ موفور من الثقافة والمعرفة الادبية .. فان تلك ادوات تساعده على اداء مهمته النبيلة التي تهدف الى تمتين العلاقات ونشر المحبة بين البلد الذي يمثله والبلد الذي يعمل فيه . وقد نجح فاضل خلف في ذلك .. النجاح كله » .

هذا هو اذن الشاعر الكويتي فاضل خلف صديق تونس المخلص ، وهذا هو ديوانه على « ضفاف مجردة » .. واني بعد كل هذه الصفحات اجدني لم اف الشاعر كل حقه ، ولم آت الا على ذكر قليل من شعره وشعوره تجاه تونس الخضراء .. ولعلي في فرصة اخرى مواتية اواصل البحث في هذا الموضوع ، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، فهو خير المعين .

تونس   ابو القاسم مناع

•

نفحات عطر

تأليف السيدة اسمى طوبي ــ ١٤١ صفحة من القطع المتوسط ــ مؤسسة نوفل ببيروت ــ لم يذكر اسم المطبعة

منذ ان وصلت الي هدية الاديبة الكبيرة السيدة اسمى طوبي «نفحات عطر» وانا اشمها واستعيد الشم ، فالعطر الاصيل يظل شذاه يفوح

ويفوح ، يملا النفس بهجة وارتياحا .

ليست هذه النفحات من العطر الرخيص الذي يزكم الانـوف ، ويثقل الانفاس ويخنقها ... بل هي نفحات لا احب ولا امتع للقلـوب المتعبة ، والاعصاب المتوترة ، والعقول الحائرة .

كم تمنيت لو قرات هذه النفحات وانا وحيد على قمة جبـل. او على ضفة نهر ، اوفي ظل غابة بعيدة بعيدة عن المدينة وهمومهاومتاعبها لكنت تذوقت متعتها وحلاوتها اكثر ، لكن ما حيلتي وقد وصلتني وانـا في زحمة الاعمال التي لم تسمح لي بقراءتها في جلسة واحدة ، رغم انهـا من الممكن ان تقرا في ساعتين على الاكثر ، يقرؤها المتفرغ الذي لا هموم له ، ولااعباءتثقل كاهله ، وتضغط عليه منكل صوب .

قرات هذه المقطوعات اللطيفة مجموعة ، وكنت قد قرات بعضهـا متفرقا قبل اليوم في مجلتي « صوت المراة » و «دنيا المراة» وكانت من كاتباتهما الدائمات ،لايكاد يخلو عدد منهما من مقالة ، او خـــاطرة تستمدها من واقع حياتنا التي شئنا ان نزرعها صخبا وعنفا وسباقـا وتزاحما ...

ضم الكتاب ثلاثا واربعين مقطوعة ، تحدثت في اثنتي عشرة منهـا عن عادات بعض الشعوب في اعراسها ، تحدثت عن اول عرس في التاريخ ثم تتبعت الاعراس منذفجر الاسلام ، الى الهند ، وروسيا ، وشمـال اوروبا ، وبورما ، وغينيا ، وهنغاريا ، وسيام ... وهذا دليل علـى مطالعاتها الواسعة ، وثقافتها العميقة ، وتقصيها الدائم ، ثم تكلمـت في الصفحات التالية عن اول من عيد للربيع . واول من اهدى الزهـر، وتزين بالورد وعن اطول ربيع واقصر ربيع ، ولمن اوحى الربيـع ...

اما الموضوعات الاخرى فكانت اشتات متفرقة ، بعضها استمدته من طبيعة لبنان وريفه الجميل ، وبعضها من ذكرياتها الحميمة ، وتـلا ذلك حديث عن بيع الزوجاتفي التاريخ ، وعن مدارس الامس ، الـى ما هنالك من موضوعات طريفة جديرة بالمطالعة ، لانك تحسها قريبـة من النفس تحمل اليها المتعة والراحة والغبطة والانطلاق ... تنقلهـا الى دنيا بعيدة عن الارضيات ... الى عوالم مثلى لا تخطر الا في بـال الشعراء والفنانين والموسيقيين الكبار .

من قرؤوا للسيدة اسمى طوبي قبل اليوم ، فانما يعرفوناسلوبها الرشيق السهل ، وعباراتها المتشحة بالمحبة والعذوبة والحلاوة ، فهـي تكتب من قلبها من احاسيسها النابضة ، من وجدانها اليقظ الحي ... تراها وهي تكتب ، كتلة من العطف على اولئك المعذبين في الارض ، على التاعسين ومنكودي الحظ... ولعل من الطف ما قرأت لها قصـة هذا الطفل الذي وقف في الصباح الباكر على طريق السيارات التـي ترتقي الجبل يبيع طاقة صغيرة من النرجس البري او بخور مريـم، فوعده السائق في العودة ، وظل المسكين واقفا حتى كانت العـودة وكانت معها خاتمة القصة ...

ما اجمل وصفها لمغارة جعيتا بهذه الكلمات الناعمة : « تنحـت الهياكل ، وتقيم على ابوابها ، وتنصب الشموع من حولها كانما تخشى علينا نحن البشر مغبة الضلال، فهي تود ان تهيىء لنا ... مصلى ».

لكنني بالرغم من اعجابي الشديد باسلوب الاخت اسمى ، ومـن تقديري للموضوعات التي اختارتها ، فان هذا الاسلوب يلتوي مـن حين لاخر ... فلتسمح لي بمحبة ان اشير الى بعض ما ورد في الكتاب من اخطاء سهاعنهاالقلم، ولا اعتقد ان صدرها الواسع يضيق بها ، مـا دمنا جميعا ننشد الكمال ،ونسعى الى الصحيح والصواب ومنها :

ص ٢١ : حذائين والصواب حذاءين .

ص ٢٧ : اربعة وعشرين ساعة والصواب اربعا .

ص ٣١ : وما نراه في قلعة بعلبك حتى اليوم شاهدا والصـواب شاهـد .

ص ٣٢ : وكانت فرصة للنبلاء ان يستفيدوا من المديونين والصواب المدينـين .

ص ٥٣ : باوراقها الخضراء والصواب الخضر .

ص ٥٥ : اول من تزين بالورود والصواب الورد ، وقد تكـررت الورود والزهور مرات .

ص ٦٥ : وتنبا بان يوما هادءا قادم والصواب هادئا .

ص ٧١ : ويعد الفارابي وابن سينا مرجعاوالصواب مرجعين .

ص ٧١ : بالظبط والصواب بالضبط .

ص ٧٢ : الجاريات المغنيات « عنان وعريب ، وفضل ومحبوبـة والصواب حبابة .»

ص ٨٢ : يتوكئون والصواب يتوكؤون .

ص ٨٣ : انا في الرابعة عشر والصواب الرابعة عشرة . سـوآل والصواب سؤال .

ص ٨٤ : السادسة عشر والصواب السادسة عشرة . اللقـاآت والصواب اللقاءات .

ص ٨٥ : ستمحوا والصواب ستمحو بحذف الالف .

ص ٩٦ : وطات والصواب وطئت .

ص.١٢ :للتطبخها والصواب لتطبخها ، وهذا خطا مطبعي.

ص١٢٥ : الهزؤ والصواب الهزء .

اتمنى ان لا اكون قد غاليت في ايراد هذه الهنات البسيطة. التي يحسن ان يخلو منها كتاب حبيب الى النفس كنفحات عطر ، وارجـو للصديقة العزيزة مزيدا من الانتاج الادبي الرفيع الذي كانت ولم تـزل تتحف به مكتبتنا العربية .

دمشق — عيسى فتوح